

الرحلات في التاريخ الإسلامي ومساهماتها الأدبية والثقافية (دراسة تاريخية وتحليلية)

Travels in Islamic History and Their Literary and Cultural Contributions (a historical and analytical study)

إعداد الدكتور/ حاتم محمد محاميد

دكتوراه في تاريخ التعليم والحضارة الإسلامية في العصر الوسيط؛ الجامعة المفتوحة وكلية سخنين الأكاديمية، الداخل الفلسطيني

Email: hatim_mahamid@hotmail.com

مُلخَص الدَّرَاسة:

تهدف هذه الدراسة إلى عرض المساهمة الأدبية والثقافية لأدب الرحلات عبر التاريخ الإسلامي، حيث أصبحت الرحلة شكلاً من أشكال الأدب الذي يصف فيه الرحالة انطباعاته الخاصة عما رآه أو سمعه من الغرائب أثناء أسفاره. تكمن أهمية الدراسة في التركيز على الاختلافات بين الرحالة في أسلوب الوصف أو أهدافهم من الرحلة، فمنهم من اتبع البحث عن الحقيقة، ومنهم من استخدم الطابع الوصفي أو الخيالي والأسطوري، ومنهم من اتبع نهج المقارنة بين ما شاهده من غرائب واختلافات في البلدان الأخرى ومجتمعاتها من حيث العادات والتقاليد والعمارة والمناظر الطبيعية. كذلك تبرز أهمية هذه الدراسة من خلال إسهامات الرحلات الثقافية، مع تنوع أدب الرحلات في تنوع واختلاط الثقافات بين الشعوب والحضارات الأخرى. فقد تنوعت ثقافة الرحالة وميزتهم وأهدافهم مع الزمن: فمنهم العلماء والتجار أو من أصحاب المناصب الإدارية والدينية، أو من ذوي الدوافع الشخصية والمعرفية والإستكشافية. اعتمدت الدراسة على مؤلفات مختلفة للرحالة للتعرف على المنهج والأهداف والتطورات مع عرض المقارنات بين رحلاتهم، كما شكّلت المراجع التاريخية والتراجم العربية أهمية لمتابعة هذه الشخصيات ودورهم الثقافي والتاريخي. فمن أهم إستنتاجات الدراسة: أنّ الرحلات تركت أثراً واسعاً في التاريخ والثقافة العربية والإسلامية، وعكست جوانب الحياة وخصائصها في أنحاء متفرقة من العالم الإسلامي وغيرها من المجتمعات الغير إسلامية. فقد أبرزت الدراسة التنوع في أهداف الرحلات، فمنها ما كان للسياحة والتجوال أو للكسب المادي والتجارة، ومنها ما كان لأهداف الحج والزيارات الدينية، ومنها للرحلة في طلب العلم والمعرفة، ومنهم ما كان يهدف الى الشهرة والرّفعة. نتيجة لذلك، يحتاج أدب الرحلات إلى التعمق في بحث الأهداف والأهمية مع التركيز على المقارنة بينها للوصول إلى الموضوعية في أدبياتها وإسهاماتها التاريخية.

الكلمات المفتاحية: الرحلة وإسهاماتها؛ أهداف الرحلة؛ الإرث الثقافي؛ التاريخ الإسلامي؛ الرحلة والحدائث

Travels in Islamic History and Their Literary and Cultural Contributions (A historical and analytical study)

Dr. Hatim Muhammad Mahamid

PhD in History of Medieval Islamic Education and Culture/ Islamic Studies; The Open University
and Sakhnin Academic College

Abstract:

This study aims to present the literary and cultural contribution of travel literature throughout Islamic history, where travel became a form of literature in which the traveler describes his own impressions of what he saw or heard of strange things during his travels. The study's significance lies in its focus on the differences among travelers in their descriptive style and their objectives for undertaking the journey. Some pursued a quest for truth, while others employed descriptive, imaginative, or mythical narratives. Still others adopted a comparative approach, contrasting the strange and different aspects of other countries and their societies in terms of customs, traditions, architecture, and landscapes. The importance of this study is further highlighted by the contributions of cultural travelogues, with travel literature reflecting the diversity and intermingling of cultures among different peoples and civilizations. The culture, characteristics, and objectives of travelers have diversified over time: some were scholars and merchants, others held administrative or religious positions, while still others were driven by personal, intellectual, and exploratory motives. This study relies on various travelogues to identify the methodologies, objectives, and developments in these journeys, while also comparing their accounts. Historical sources and Arabic biographies are crucial for understanding these figures and their cultural and historical roles. One of the most important conclusions of this study is that travel has had a profound impact on Arab and Islamic history and culture, reflecting aspects and characteristics of life in various parts of the Islamic world and other non-Islamic societies. The study highlighted the diversity of travel objectives, ranging from tourism and exploration to financial gain and trade, religious pilgrimages and visits, the pursuit of knowledge, and even the desire for fame and prestige. Consequently, travel literature needs to delve deeper into its aims and significance, focusing on comparing them to achieve objectivity in its literary works and historical contributions.

Keywords: Travel and its Contributions; Aims of Travel; Cultural Heritage; Islamic History; Travel and Modernity

1. المقدمة:

من خلال التنقل والترحال، تبرز معالم حاجة المرء للأخر بتداخل المجتمعات وتواصلها، وتنشأ العديد من المزايا نتاجاً لهذا التواصل، وتثير الإهتمام لمعرفة كل ما هو غريب وجديد في المجتمعات أو البلدان البعيدة والثانية. ففي التاريخ العربي ما قبل الإسلام، تطورت الكثير من العادات والمعتقدات المرتبطة بأهل البادية الذين اعتادوا على الرحلة والترحال وأصبحت منهجاً في نمط حياتهم، وذلك لترسيخ بعض الميزات التي ورثها أهل البادية تاريخياً عن الأجداد، كالكرم والمروءة والنجدة والشجاعة وغير ذلك (بحري، 2019/9: 43-59؛ الموافق، 1995: 19-34). كذلك تترسخ مزايا الشوق والحنين للأماكن، الصبر والوفاء والفراسة، الضيافة والكرم، المدح والمفاخرة والوصف وغيرها من الأدبيات ومحاسن العادات والفضائل. هكذا تطورت مضافات شيوخ القبائل العربية ومجالسهم، يجتمع فيها أهل المكان مع الغرباء والمترجلين لتناقل الأخبار وسماع الروايات وما يحتاجونه من قصص وأخبار. هذا بدوره ساهم في تطور مجالس الشعر ومجالس السمر لقضاء لياليهم بسماعها. فالأدب والشعر الجاهلي قد أخذ حيزاً واسعاً في تلك الفترة ليعكس حياة الجاهلية في تلك البيئة الجافة والقائمة على مبدأ الإرتحال والتنقل بكل مظاهره وأنواعه ومسبباته. فمفهوم الترحال، قد ترك أثره في الشعر الجاهلي نتيجة هذا الترابط بين العادات والمعتقدات بالإرتحال بشتى أنواعه كرحلة الشاعر على ناقته، ورحلة الطعائن عبر الصحراء وعلاقة الإرتحال بالأطلال وأثرها في أحاسيس ونفسيّة الشاعر وأهل البادية عامة (العلينان، 2011).

في العصور الإسلامية المتعاقبة، بدأت رحلات الحجّ والزّيارات الدّينية تأخذ نظاماً إسلامياً عاماً كأحد الفرائض، مما رسّخ ثقافة الرّحلات الأخرى بأنواعها في جميع البلدان الإسلاميّة، باستغلال هذه المواسم الدّينية كأساس أو جزء من تلك الرّحلات (Wolfe, 2015). كذلك استمر انتشار أدب المجالس وتنوّعه في قصور الحُكّام والخلفاء فيما بعد، فمنها ما عُرف بمجالس الشعر في العصر الأمويّ والذي عُرف بشعر النّقائض، ومنها ما عُرف بمجالس السمر عند العباسيين للتّرفيه والإستمتاع بسماع حُرّافات "ألف ليلة وليلة" من قصص شهريار وشهرزاد وما رافقها من قصص خيالية ومغامرات الرّحالة. وهكذا، منذ عصر الفتوحات الإسلاميّة وانتشار الإسلام شرقاً وغرباً، بدأت الرغبة في اكتشاف ثقافة الآخرين تتبلور للتعرف على شعوب وأقوام غير عربية دخلت الإسلام، وأصحاب ثقافات ولغات جديدة. فقد تناولت دراسة محمّد الشنقيطي، مثلاً، وحدة العالم الإسلامي من الناحيتين الثقافيّة والجغرافيّة، والتي تنطلق من التعبير عنها كما جاء في رحلة الرّحالة المغربيّ ابن بطوطة (148-168: El-Shinqiti, 2022)، وكذلك كما ظهرت فكرة "الهلال/القوس" الجغرافي الإسلامي التي صاغها العالم الجغرافيّ والسياسيّ المصريّ جمال حمدان (حمدان، 1971).

بقيت آثار الشعر والوصف وأدبيّاته بين الشعراء منذ عهد الجاهليّة تمتدّ حتى في العصور الإسلاميّة، ولكن مع التجديدات والفنون الأدبيّة والفكريّة لملاءمة العصر. وعلى هذا الأساس، فإنّ النظرة العامّة إلى تاريخ أدب الرّحلات تقودنا إلى الفترة التي نشطت فيها الرّحلة العربيّة الإسلاميّة حتى وإن اختلفت دوافعها ومجالاتها. فكتابات الرّحالة في أيّ من الفترات تميّزت بأنّها تشكّل جزءاً من النظام الثقافيّ والمعرفي لعصر هؤلاء الرّحالة، الأمر الذي وجّه الرّحالة وجعلهم يتمحورون في إطار تلك الجوانب المعرفيّة مهما كان مصدرها. فعلى سبيل المثال، يقول الإمام الشافعيّ (ت. 204هـ/820م) في أشعاره وما فيها من الحكمة الدّاعية إلى الحثّ على السفر والإغتراب والتّرحال عن الأوطان بهدف الإكتساب والمطالب الشريفة، قوله (الشافعيّ، 2014: 39):

ما في المُقامِ لذي عَقْلٍ وذي أدبٍ من راحةٍ فدَحِ الأوطانَ واغترِبِ

سافرْ تَجِدْ عَوْضاً عَمَّنْ تُفارقُهُ أوْ نُصَبْ فإنْ لذيذِ العَيْشِ في النَّصَبِ

إنّي رأيتُ وُوقِفَ الماءُ يُفسِدُهُ إنْ سَاحَ طابَ وإنْ لم يَجْرَ لم يَطْبِ...

ويقول الشاعر الصوفي سلطان العاشقين ابن الفارض (ت. 632هـ/1235م) شعراً في وصف الرحلة والأطعان الرحلة وما تركته من شوقٍ وحنين (ابن الفارض، 1963):

سائق الأطعان يطوي البيد طي *** مُنِعماً عَرَجَ على كُنْبَان طي...
نصّباً أكسبني الشوق كما *** نُكسِبُ الأفعال نصّباً لأم كي...
ذابت الرُوحُ اشتياقاً، فهي، بَع *** دَفَادِ الدَّمع، أجرى عِبْرَتِي...

1.1. مشكلة الدراسة:

أدب الرحلات هو نوعٌ من الأدب الذي يصوّر فيه الكاتب أو الرحالة ما رآه ولاحظه بشكلٍ شخصيٍّ أو ما سمعه ووثقه للفارئ أو الآخرين بإنطباعاته الخاصّة، أو ما نقله وسمع عنه من الآخرين. من هنا تكمن مشكلة البحث بأنّ موضوع الرحلة فيه تنوّع وتنقل مع مجابهة الأخطار ومشاهدة الغرائب والعجائب في ترحال أصحابها. كما أنّ الرحلة تتعلّق بقوة الشخصية والجرأة والشجاعة لصاحبها، ثقافته وهدفه من الرحلة التي يقوم بها، إن كانت لأهداف الكشف والمعرفة، أو دينيّة في رحلة الحجّ أو زيارات المقامات وقبور الصالحين، أو لأهداف تجاريّة والكسب والشهرة وغيرها. ومن هؤلاء الرحالة من قام بهذه الأهداف مجتمعة، الأمر الذي تطلّب منهم الصبر والمقدرة على مجابهة الصّعوبات والمخاطر والأحوال، إضافة إلى العوائق النفسيّة والجسديّة والماديّة، ثمّ الوقت والزمن الكافي للقيام بهذه الرحلات. لتحقيق النتائج المرجّوة، تحاول الدراسة طرح عدّة أسئلة للنقاش والتحقيق والمقابلة والبحث في موضوعها، ومن أهمّ تلك التساؤلات: ما هي الدوافع والأهداف الرئيسيّة من وراء القيام بالرحلات في العصور الإسلاميّة؟ وما هو المدى الزمنيّ لمثل هذه الرحلات؟ ما هي المزايا التي كان يتحلّى بها الرحالة؟ وهل كان للحكام دورٌ بدفع مثل هذه الرحلات وتأمينها؟ ما هي الصّعوبات والمخاطر والعقبات التي واجهت الرحالة أثناء رحلاتهم؟ هل أسهمت كتب الرحلات في الحضارة العربيّة وأدبيّاتها وثقافتها وبأبيّ مجالات؟ وما هي أهمّ الموضوعات التي ركّز عليها الرحالة في وصفها لتوثيق رحلاتهم؟ ما هي المصادر والوسائل التي اعتمد عليه الرحالة في كتابة مؤلّفاتهم؟ وإلى أيّ مدى كانت الدقّة والمصدقيّة بما نقله ووصفه الرحالة من قصصٍ ومعلومات ما بين الحقيقة والخيال؟

2.1. أهمية الدراسة:

أهميّة الرحلة في التاريخ الإسلاميّ أنّها تشكّل مصدراً هاماً يضيف إلى المصادر التاريخيّة الأخرى من كتب وتراجم ومؤلفات بأنواعها مرتكزاً أساسياً للمعرفة الحقيقيّة والواقعيّة في توثيق المشاهدات، العادات والتقاليد، وكذلك في وصف الأماكن والطرق وظروف السفر والمخاطر التي واجهت الرحالة. لذا تكمن أهميّة الرحلة كونها توثّق جميع المجالات التاريخيّة، منها الثقافيّة، الاجتماعيّة والجغرافيّة والعجائب والغرائب.

3.1. أهداف الدراسة:

تتمحور أهداف هذه الدراسة حول عدّة نقاط رئيسيّة: أهمّها التركيز على الاختلافات بين الرحالة من حيث أهداف الرحلة، الأسلوب الذي اتبعه الرحالة في وصفه وتوثيقه للمشاهد في المناطق المختلفة والمخاطر والعوائق التي واجهته، أو وسائل الراحة والأمان فيها. كما تهدف الدراسة إلى إبراز أهميّة الرحلات وإسهاماتها الثقافيّة كمرجع تاريخي يوثق الثقافات المتنوّعة بين الشعوب والحضارات المختلفة. كذلك يهدف إلى معرفة أدب الرحلات وتنوّعها وفقاً لثقافة الرحالة ومكانته الاجتماعيّة والعلميّة وأهدافه من القيام في مثل هذه الرحلات، والتعرّف على مدى موضوعيّة مؤلّفاتهم حول تلك الرحلات ومستوياتها العلميّة، التاريخيّة والأدبيّة والجغرافيّة.

4.1. منهج الدراسة:

يمكن تحديد نوع هذه الدراسة أنها دراسة تاريخية وتحليلية حسب عنوانها ومضمونها، أسلوبها ونهجها. يعتمد البحث على المنهج البحثي في عرض أهداف الرحلات ومساراتها والإعتماد على منوعات من مؤلفات الرحالة في مناطق مختلفة من العالم الإسلامي وفي فترات تاريخية مختلفة، ثم إجراء المقارنة والمقابلة والتحقق فيما ورد فيها من اختلافات وتشابهات، والإستعانة في المراجع التاريخية والجغرافية العربية والإسلامية وكتب التراجم لمعرفة مدى ملاءمة المنهج لموضوع وأهداف البحث. كما تحاول الدراسة التركيز على كتب الرحلات بشكل أساسي وملحقاتها من الشعر والأدب وما حوت من تفاصيل، هذا إضافة إلى بعض المصادر من الدراسات الحديثة في هذا السياق.

2. الرحلة والترحال في التاريخ العربي والإسلامي

للرحلة والترحال دلالات عدة في الثقافة والتاريخ العربي والإسلامي، حيث عُرف ما قبل الإسلام ومنذ عصور قديمة بارتباطه في الحياة الإجتماعية للعرب من البدو الرُحَّل والرحالة، ما بين حياة البادية والحياة الحضرية وما يميز كلَّ منها من نمط الحياة ومعيشته بين الترحال في البادية طلباً للماء والكلاء، وبين الإستقرار في المدن وحواضرها وتطورات معيشتها (العلّيان، 2011). فيقال "الرحلة" دلالة على المُركب من الإبل، والرُحَّال: العرب الرُحَّال الذين لا يستقرون في مكان، والرُحَّل: ما يوضع على ظهر البعير للركوب، والرحال تعني المنازل والمسكن التي تحطَّ فيها الرُحَّال للإستراحة، فيقال حطَّ رحاله (الفيروزآبادي، 2008: 626؛ ابن منظور، 1414هـ). هذا إضافة إلى ما هنالك من معنى لكلمة "الرحيل" وأثرها، وهي الموت والغيب وفراق الحياة الدنيا. فيقول الشاعر أبو الطيب المُتنبّي في هذا المعنى في إحدى قصائده في مدح سيف الدولة الحمداني: "وإنَّ رَجِيلاً وِجداً حَالٌ بَيْنَنَا *** وَفِي المَوْتِ مِنْ بَعْدِ الرَّجِيلِ رَجِيلٌ" (البرقوقي، 2014: 920).

للرحلة والإرتحال عدة أهداف يبحث فيها المُرتحل لتحقيق غاياته والعمل بها، منها: التجارة، التكتسب بالشعر، الفرار، النفي والطرْد. وهناك أيضاً أغراض متفرقة للإرتحال كالبحث عن مباحج الحياة والسياحة، أو الإرتحال بسبب الجذب والأفات الطبيعية وغيرها. وفي العصور الإسلامية المتعاقبة، إستمرت الرحلة وأدبياتها ولكن تنوّعت بالأسباب والأهداف للقيام بها، مع التعدّد بالأساليب والمسالك والإنتقال من السردية الشفوية إلى التوثيق بالكتابة لهذه الرحلات، مع تطورات أدبيات الرحلات والقائمين عليها من الرحالة (الموافي، 1995: 31-34؛ ربح، 2018/6: 297-301). في مصطلح "الرحلة" في القرآن الكريم (سورة قريش) عدّد الله تعالى نِعْمَهُ على قريش في مكة من الرزق الوفير من خلال رحلتين تجاريتين، "رحلة الشتاء والصيف" إلى اليمن جنوباً وإلى بلاد الشام شمالاً، وأمنهم وحفظ البيت الحرام للعبادة والحجّ، وجعل من مكة وجوارها مكاناً آمناً بكلّ المعايير الدينية، الإقتصادية والأمن والأمان (Mahamid & Nissim, 2023).

مع انتشار الإسلام والعلوم الإسلامية في البلدان المختلفة مشرقها ومغربها، وخاصة بعد النهضة العلمية في العصر العباسي ببناء "بيت الحكمة" ومكتبتها الغنية في بغداد في عهد الخلفاء هارون الرشيد (ت. 809م) وإبنة المأمون (ت. 833م)، انتشرت العلوم وتنوّعت، منها الدينية ومنها الدنيوية (العلوم الثقلية والعلوم العقلية)، تالياً وترجمة وتعليماً وتصنيفاً بعلوم عدة. وهكذا، بدأ يتطوّر وينتشر نوع من الرحلات بين أهل العلم بإسم "الرحلة في طلب العلم"، التي ارتحل بها طلاب العلم إلى بلدان أخرى، بعيدة أو قريبة، وذلك للبحث عن عالمٍ قد اشتهر بعلمه وشاع صيته للتعلم على يديه وللأخذ عنه. لذا، عُرف هؤلاء المشاهير من العلماء بلقب "الرحلة" لارتحال الطلبة إليهم. كما ساهمت الدولة الفاطمية الإسماعيلية بما وصلت إليه من العلوم والمؤلفات بعد إنشاء "دار العلم" في القاهرة في عهد الإمام الحاكم بأمر الله (ت. 1021م) وإنشاء أكبر مكتبة في التاريخ الإسلامي التي جمعت من الكتب الدينية الشاملة والمؤلفات

الفلسفية النادرة (Abu Alhaija & Mahamid, 2021). وهكذا أخذت هذه المؤسسات من دار الحكمة ودار العلم وفروعها في البلدان الإسلامية المختلفة والمكتبات وما اكتنزت من نفائس الكتب، تستقطب إليها طلبة العلم والإرتحال إليها من بلاد المشرق الإسلامي وبلاد المغرب لأهداف عدة، للتعلم والنقل والتصنيف والتأليف والبحث، وكذلك الترجمة من لغات مختلفة إلى اللغة العربية (العش، 1991؛ عطا الله، 1989؛ المقرزي، 1998، ج 2: 163-165، 245).

كان للرحلة العربية قديماً الأثر الذي انعكس بإيجابية على الحضارة العربية والإسلامية فيما بعد. ففي العصور الإسلامية، تعدّ الرحلة نقطة تحوّل في جميع المجالات الثقافية والاجتماعية والدينية والاستكشافية، وذلك من خلال اختلاط العرب بالشعوب الأخرى بعد الإسلام، ومعرفة عاداتهم، وتقاليدهم، ومختلف ألوان الحضارات. وهكذا أصبحت الرحلة في العصور الإسلامية أداة لتقارب الشعوب والجماعات الإسلامية في الكثير من العادات والتقاليد في ظلّ الإسلام، وخاصة في المظاهر والأمور الدينية وما نتج عنها، حتى وإن فصلت بينها الظواهر الطبيعية من بحار وجبال وقفار. كذلك نقل الرّحالة وصفاً للغرائب والعجائب وما يميّز الشعوب الغير إسلامية من اختلافات عن الشعوب الإسلامية. هذا، ما نلحظه من وصف الرّحالة محمّد بن عبد الله ابن بطوطة (ت. 779هـ/1377م) بوصفه مظاهر المجتمعات الإسلامية في البلدان المختلفة وما يجمعها من عادات وتقاليدهم. فيلاحظ ابن بطوطة التجانس والتشابه الثقافي مع سائر الأقسام المسلمة التي زارها، والإنسجام بالشعور مع المسلمين حيثما كانوا، في بلاد الشام والعراق وبلاد فارس، عُمان، اليمن والأناضول وغيرها، من حيث تديّهم وأعرافهم الاجتماعية، إكرام الضيف ومكارم الأخلاق والشجاعة وغيرها من العادات (ابن بطوطة، 1987؛ ريوح، 2018/6: 301-311؛ Wolfe, 2015; El-Shinqiti, 2022). فيعتمد الباحث رُسن دُنّ (Ross Dunn) في بحثه حول كتابات ابن بطوطة الخاصّة برحلته، ويقدم تعليلاً على المجتمعات والأماكن التي زارها، مستفيداً بشكل مثير للإعجاب من الزيادة الكبيرة في معرفتنا على مدار الأجيال الماضية من العصور الوسطى. كما تُعتبر كتاباته حول الرحلة ووصفه لها مقدمة للعالم الإسلامي بشكل خاص، وللعالم في أواخر العصور الوسطى بشكل عام. (Dunn, 2012). وهكذا استعرض الشنقيطي أيضاً في دراسته الوحدة الثقافية في العالم الإسلامي من خلال وصف ابن بطوطة لها أثناء رحلاته (El-Shinqiti, 2022).

لقد تفاوتت مدّة الرّحلات وأهدافها بين الرّحالة حسب قوّة الشّخصيّة بالتحّمّل والصبر أمام الصّعوبات في أسفارهم ودوافعهم وأهدافهم من الرّحلات. فكان موسم الحجّ إلى الأماكن المقدّسة في العصور الإسلاميّة قد شكّل مركزية الهدف من الرّحلات ومنها انطلق غالبية الرّحالة بعد أداء فريضة الحجّ إلى رحلات أبعد من ذلك يشمل بعض البلدان الإسلاميّة المجاورة. فكان معدّل هذه الرّحلة بشكل عامّ بضع أشهر ذهاباً وإياباً لإتمام مراسم الحجّ، ولكن بعض الرّحالة من طالت رحلته وفقاً للظروف والأهداف. فعلى سبيل المثال: رحلة ابن فضلان كمبعوث رسميٍّ من بغداد إلى بلاد الصّقالبة (البُلغار) عام 921م استغرقت مدّتها ما يقارب العام (ابن فضلان، 1959). يذكر الباحث مايكل وولف (Wolfe, 2015) في تحرير مؤلّفه بالإنجليزيّة بعنوان: "ألف طريق إلى مكّة: عشرة قرون من كتابة المسافرين عن الحجّ الإسلامي"، وكما توضّح روايات الرّحالة أيضاً، أنّ الرّحلة إلى مكّة كانت دائماً تخدم أكثر من هدف الحجّ فقط، حيث كانت الرّحلة تتطلب أشهراً أو حتى سنوات. ليس من المستغرب أن معظم الكتابة في وصف الرّحلات توثّق رحلة الذهاب والإياب، وعبور الجبال والبحار، والصحاري، ووصف الأضرحة المقدّسة، والمدن الكبرى، والطرق والمسالك الغريبة، ومقابلة النّاس الغرباء ومشاهدة عاداتهم الغريبة، وما واجه هؤلاء الرّحالة من الأهوال والمخاطر أثناء رحلاتهم. فيذكر الباحث وولف أمثلة كثيرة من الرّحالة على مدار عشرة قرون حتى العصر الحديث، منهم من العصور الوسطى أمثال: ناصر خسرو، ابن جُبَيْر، ابن بطوطة وغيرهم، وما واجهوا من أخطار ومصاعب في رحلاتهم، حتى في مكّة نفسها وفي مسار رحلة الحجّ ذهاباً وإياباً (Wolfe, 2015).

يُلاحظ أنّ رحلة ناصر خسرو الألبانيّ الفارسيّ (ت. 481هـ/1088م) من مدينة بلُخ في خراسان من بلاد المشرق إستغرقت سبع سنوات كما يذكر في كتاب رحلته (سفرنامه)، قائلاً: "وقد مضى على خروجنا من خراسان سبعة أعوام..." "وتبلغ المسافة التي قطعناها

من بلخ إلى مصر ومن مصر إلى مكة ومنها إلى فارس عن طريق البصرة ثم إلى بلخ عدا الأطراف التي زُرناها في الطريق ألفين ومائتين وعشرين فرسخاً" (ناصر خسرو، 1993: 178-179). وهكذا، قضى ناصر خسرو في ترحاله سنتين عبر بلاد فارس وشرق الأناضول، ثم مدن بلاد الشام وفلسطين حتى بلوغة إلى مصر، ثم قضى ثلاث سنوات في مصر يحضر فيها مجالس العلم والدعوة الإسماعيلية في الجامع الأزهر وفي قصور الفاطميين في القاهرة. وقد قضى ناصر خسرو مدة سنتين في مسار عودته مع أداء رحلة الحج، والعودة إلى بلاده عن طريق البصرة جنوبي العراق (أنظر الخريطة 1).



الخريطة 1: رحلة ناصر خسرو ومسارها من بلاد المشرق الإسلامي (مدينة بلخ) حتى مصر والحجاز ثم العودة (Ismailimail. (Jan. 29, 2014).

أما رحلة ابن جبير الأندلسي (ت. 614هـ/1217م)، فقد استغرقت ثلاث سنوات من الأندلس فمصر ثم إلى الحج (الحجاز)، وبعدها استمر برحلته إلى العراق ثم إلى بلاد الشام والعودة إلى غرناطة (إبن جبير، 2012؛ الجيلوي، 2024؛ Wolfe, 2015). بينما رحلة ابن بطوطة فقد استغرقت مدة طويلة بدأها من طنجة في المغرب إلى جاوة وجزر المشرق (إندونيسيا اليوم) مروراً بمصر والحج والبلدان الإسلامية شرقاً وكذلك في الهند والصين والقسطنطينية، مدتها 25 سنة، ثم أتبعها برحلة أخرى في أفريقيا مدتها خمس سنوات. وقد تفاخر ابن بطوطة برحلته الطويلة، قائلاً: "بلغت - بحمد الله - مُرادِي في الدنيا وهو السَّيَاحَة في الأرض. وبلغت من ذلك ما لم يبلغه غيري فيما أعلمه، وبقيت الأخرى، والرَّجاء قويٌ..." (ابن بطوطة، 1987: 201؛ Wolfe, 2015). بينما ابن خلدون (ت. 1406م)، فقد قضى من حياته ما يقارب 50 عاماً بين التنقل والإرتحال وبين الاستقرار في بلدان عدة ما بين تونس إلى الأندلس فالمغرب ثم مصر مع أداء فريضة الحج حتى وفاته (إبن خلدون، 2004). أما أبو الحسن علي الهروي، (ت. 1215م) فقد قضى حياته مُرتحلاً في أنحاء المشرق والمغرب الإسلاميين ليوثق لنا كتاب رحلته "الإشارات إلى معرفة الزيارات" مُركّزاً على ذكر المقامات وقبور الصحابة والصالحين في البلدان المختلفة، والتي شكّلت أماكن للزيارات والتُربى لإحياء المناسبات والإحتفالات الدينية وكذلك الإجتماعية (الهروي، 2002).

3. أهداف الرحلات وتنوعها في ظل التطورات التاريخية

من خلال الإطلاع على العديد من كتابات الرحالة، مضمونها وأدبياتها يمكن توزيعها على عدة أنواع ومحاور ذات إهتمامات مختلفة، منها الأسلوب والأهداف، والعجائب والغرائب، ومنها ما تأثر بتغيرات المعالم الحضارية والاجتماعية، المظاهر الجغرافية والعوامل السياسية وتطورات العصر:

1.3. الرحلات ذات الطابع الخيالي والأسطوري

انتقلت بعض القصص الخيالية والأساطير إلى الثقافة العربية من الثقافات القديمة كالثقافة الهندية والفارسية، مثل قصص ألف ليلة وليلة عن الحاكم شهريار وزوجته شهرزاد، وزاد عليها القصاصون العرب بروايات أخرى والتي شكّلت أحد أنواع روايات الرحالة، وإن لم تكن حقيقية أو واقعية، بل أساطير وخرافات خيالية، مثل قصص السندباد البحري ورحلاته السبع مثل: الجزيرة المتحركة، الخيول البحرية، وادي الألباس، الغول الأسود، الوليمة الغربية، شيخ البحر، مقبرة الأفيال والقافلة، وغيرها من القصص الخرافية. حتى وإن كانت شخصية السندباد حقيقية لتاجر من بغداد، ولكن رحلاته الخيالية تُعتبر واحدة من أشهر حكايات ألف ليلة وليلة، والتي كان السندباد بطلها، التي زار بها العديد من الأماكن السحرية أثناء إبحاره إلى سواحل أفريقيا وشواطئ آسيا والتقى بالكثير من الوحوش الخيالية، ولقي فيها المصاعب والمخاطر، وغيرها من الروايات والقصص (ابن المُقَفَّع، 1951). كذلك الأمر، ظهرت قصة ابن طُفَيْل الخيالية "حيّ بن يقظان" ورحلاته وتطوّر حياته الغربية في الغابات وبين الحيوانات ونجاحه في التكيف معها، والتي أغنت الثقافة العربية بفلسفتها وأحداثها الخيالية، متأثرة بفلسفة العلماء المسلمين، أمثال ابن سينا والسهروردي (ابن طُفَيْل، 2011).

2.3. مجالس السمر والترفيه كأهداف للترحال والسفر

تعزّزت هذه المجالس وترسّخت في الحضارة الإسلامية في العصرين الأموي والعباسي، وكذلك الأندلسي، مع التنوع في أنواع المجالس وأهدافها تبعاً للتطورات الدينية والفكرية والسياسية في العصور الإسلامية المختلفة. فبعد أن اتخذ معاوية بن أبي سفيان حياة القصور والعظمة في العصر الأموي، عمل على عقد المجالس الأدبية والسمر، ودعا إليها أهل الأخبار والنوادر والأدب والشعر. وقد كان معاوية بن أبي سفيان يميّز بالحكمة والدهاء والسياسة والشغف في سماع قصص العرب والأخبار وتواريخ الأمم وأخبار الدول والملوك. وهكذا سار الخلفاء والحكام والأمراء على هذا النهج في إحياء مجالس الأدب والسمر والشعر، مما ساهم في جذب الشعراء البارزين وذوي الشهرة وتنقلاتهم إلى تلك المجالس، مثل الفرزدق وجريير وغيرهم من مشاهير الأدباء، الذين أبرزوا الشعر في المفارقة والمدح والهجاء، والذي سُمّي بأدب "النقائض". وقد بقيت الساحات العامة والأسواق أيضاً تجذب إليها المترحلين من أصحاب الشعر والقصص، وتخدم مكان عقد مثل هذه المجالس لإستقطاب العامة لحضورها، كما كان الأمر في "سوق المربد" في مدينة البصرة جنوب العراق، مع انتقال مركز الحضارة الإسلامية من قلب الجزيرة العربية إلى العراق وبلاد الشام. وكان المربد سوقاً للإبل أولاً، لكنّه صار سوقاً عاماً تُجرى فيه المجالس الثقافية والشعرية والدينية على أنواعها في العهد الأموي، فكان لكلّ شاعر حلقة أو مجلس كما كان حال سوق عُكاظ في مكة سابقاً أيام الجاهلية. ومع تطوّر هذا النوع من المجالس، ترك أثره في أدبيات الثقافة العربية والإسلامية، وازداد التنافس بين القصاصين والشعراء بتنوع موضوعاتهم وفلسفتهم وترحالهم إلى بلاط قصور الحكّام والأمراء (اللواتي وتركي، 2020: 578-598).

يُجمع الباحثون في الأدب العربي على أنّ مجلس الخليفة هارون الرشيد كان من أهمّ المجالس، كما يذكر المؤرّخ أبو منصور الثعالبي في كتابه "يتيمة الدهر" قوله: "لم يجتمع بباب أحدٍ من الخلفاء والملوك مثل ما اجتمع بباب الرشيد من فحولة الشعراء..." (الثعالبي،

ج3، 2006: 177). هذا الإنطباع من التجمعات والمجالس والمواعيد، يعزز الرغبة والفضول في استكشاف ومناقشة هذه الظاهرة، التي كانت شائعة في الثقافة الإسلامية في فترات مختلفة من العصور الوسطى. وقد تركت المجالس أثرها بين المشاركين من أجواء ثقافية عامة أو تعليمية ومعرفية، إضافة إلى دوافع التسلية والترفيه. وهكذا، راجت مجالس الحكمة والعلم، إضافة إلى مجالس السمر والأدب والشعر في قصور الخلفاء والحكام والأمراء، وشجعت الترحال إليها وجذبت ذوي الإهتمامات بهذه المجالس بين البلدان الإسلامية المختلفة، من مشرقها ومغربها (Mahamid & Abu Alhaija, 2024 a.: 56-83). كذلك أيضاً، كان قصر سيف الدولة الحمداني (ت. 967م) في حلب، على سبيل المثال، يجمع العلماء والأدباء، وكثير الشعراء حوله ينالون من جوائزهم، ويشيدون بذكره مدحاً، ومنهم أبو فراس الحمداني وأبو الطيب المتنبي وغيرهم الكثير من مشاهير وكبار الشعراء (عزّام، 2014: 90). وذكر التّعالبي في وصف مواسم الأدباء ومجالس الشعراء عند سيف الدولة، قوله: "وحَضْرَتُهُ مقصد الوفود ومطلع الجود وقبلة الآمال ومحط الرّحال وموسم الأدباء وحلبة الشعراء، ويُقال إنّه لم يجتمع قط بباب أحدٍ من الملوك بعد الخلفاء ما اجتمع ببابه من شيوخ الشعر ونجوم الدهر..." (التّعالبي، ج1، 2006: 28).

يُعتبر الشاعر أبو الطيب المتنبي (ت. 354هـ/ 965م) مثلاً في تنقلاته وترحاله لهذه الطبقة من المرتحلين بين بلدان عدة إلى قصور الحكام والأمراء ومجالسهم طلباً للمجد ورفعة الشأن والمكانة العالية بين أقرانه من الشعراء، إضافة للكسب المالي والمادي. لا شك أنّ الرّحلات والأسفار التي قام بها المتنبي في حياته الشعرية والأدبية أضفت بأدبها المُميّز والمُختلف عمّا تركه بقية الرّحالة من إرث ثقافي بأهدافهم ومضمون مؤلفاتهم الجغرافية، التاريخية والاجتماعية وغيرها. فالمتنبي يُعدّ من الشعراء الكبار، الذي ارتحل وتنقل في أجواء لا يصلها ويستحلمها إلا المُبدعين والمغامرين بإرثه الشعري، ينتقل بين المدح والهجاء أحياناً وبين المفاخرة والكبرياء، والإعتراف بنفسه وشخصيته في شعره ومجالسه. كما ذكر في إحدى قصائده شعراً في ذلك قوله:

أنا الَّذِي نَظَرَ الأَعْمَى إلى أَدْبِي *** وَأَسَمَعْتُ كَلِمَاتِي مَن بِهِ صَمَمٌ
أَنَا مِلءٌ جُفُوفِي عَن شَوَارِدِهَا *** وَيَسْهَرُ الخَلْقُ جَرَّاهَا وَيَخْتَصِمُ...
الخَيْلُ وَاللَّيْلُ وَالنِّبَاءُ تُعْرِفُنِي *** وَالسَّيْفُ وَالرُّمْحُ وَالقُرطَاسُ وَالقَلَمُ...

وكان المتنبي ذا شخصية مميزة، اشتهر بمُدُوناته الشعرية والقصائد المختلفة، التي تعتبر سجلاً أدبياً وتاريخياً يمكن من خلالها استقراء الأحداث في عصره بظهور الدويلات والإمارات المتصارعة في العالم الإسلامي في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي. ففي هذه المرحلة من التاريخ الإسلامي، تنقل المتنبي بين الكوفة وبغداد في العراق إلى بلاد الشام ومدنها، إلى فلسطين فمصر ثم العودة إلى العراق وبلاد فارس، ينتقل بين قصور حكامها ذوي الإتجاهات الفكرية والدينية والسياسية المختلفة، الأمر الذي ترك أثره على نوعية مؤلفاته الشعرية وأسباب تنقلاته وترحاله (عزّام، 2014).

كان المتنبي معبراً بارعاً بصورة شعرية وصادقة لعصره للأحداث من ثورات واضطرابات وصراعات بين الممالك المختلفة، والتي تستعرض ما كان من تنافس بين المذاهب الدينية والآراء الفكرية مع التطورات في العلم والفلسفة، بما لم يتبعه أحدٌ من الرّحالة الآخرين ذوي الإختصاصات الجغرافية أو السياسية والاجتماعية. هذه المميزات الشعرية، تركها المتنبي في كلّ محفل شعري حلّ به، بل تجاوز هذه الحدود في مجالس الحكام وقصورهم التي تنقل بينها إما مدحاً وإما مطروداً ومهدداً بسبب الهجاء والذم، حيث اشتهر المتنبي بتقلباته في علاقته مع الحكام. فعلى سبيل المثال، كان يمدح حاكم حلب سيف الدولة الحمداني ثم يهجو، وذلك بعد مدة ثماني سنوات عاش فيها أفضل أيام حياته وأكثرها عطاء في بلاط سيف الدولة في حلب، وكما حدث أيضاً مع كافور الإخشيدي حاكم مصر في حينه، بعد أن أقام عنده أربع سنوات ونصف السنة (المتنبي، 2020).

ويلخص الثعالبي أسلوب المُتنبّي بتنقلاته وشعره بين مدح وذم ووصف، وأنه كان بعيد الأمل بأسفاره، لا يستقرّ ببلد ولا يسكن إلى أحد، وكان من وفرة ما لاقى في سبيل غايته من مشقة، وشح ما لقي من مكافأة، وطول ما عانى، يكره الدنيا ومن فيها، ويخالها بناسها حرباً عليه، كما عبّر الكثير بما قاله من شعر في تحقير الناس وذمهم (الثعالبي، ج1، 2006: 112-211).

مع ظهور التيارات الدينية والمذهبية والفكرية وتتوَعها وانتشارها في الإسلام، بدأت تنشأ مجالس مختلفة ذات طابع ديني من مجالس الوعظ ومجالس الدعوة، والتي انتشرت في المساجد وساحاتها، كما انتشرت بدعم من الحكام أو التيارات الدينية والسياسية. وعادة ما كان هؤلاء الشعراء أو القصّاص أو الوعاظ والدعاة يرتحلون من مكان إلى آخر، كما كان في تنقلات ابن الجوزي في عقد مجالس وعظه في بغداد. وفي وصف الرحالة ابن جبير لأحد مجالس الوعظ لابن الجوزي، يذكر في تقرير رحلته معبراً عن إعجابه بالقدرات الخطابية وأسلوب الواعظ الشهير ابن الجوزي وسعة علمه بالقرآن وآياته والسنة والشعر. كما نقل لنا ابن جبير العديد من مجالس الوعظ لوعاظ آخرين من مذاهب مختلفة، التي حضرها وسمعتها في القاهرة ومكة والمدينة وبغداد وغيرها، وما حوت من مواظ دينية، فيقول الرحالة ابن جبير حول مجلس ابن الجوزي في بغداد، مثلاً: "ثم شاهدنا صبيحة يوم السبت بعده مجلس الشيخ الفقيه، الإمام الأوحّد، جمال الدين أبي الفضائل بن علي الجوزي، بزاز داره على الشطّ بالجانب الشرقي وفي آخره على اتصال من قصور الخليفة...، وهو يجلس به كل يوم سبت، فشهدنا مجلس رجلٍ...، آية الزمان، وقرّة عين الإيمان، رئيس الحنبليّة، والمخصوص في العلوم بالرّتب العلية، إمام الجماعة، وفارس حلبة هذه الصناعة، والمشهود له بالسبق الكريم في البلاغة والبراعة ومالك أزمة الكلام في النظم والنثر، والغائص في بحر فكره على نفائس الدرّ، فأما نظمه فرضيّ الطّباع، مهياريّ الإنطباع، وأما نثره فيصعد بسحر البيان...". (ابن جبير، 2012: 195-200؛ Dorpmüller, 2016)

كذلك الأمر، كان في رحلات ناصر خسرو القبادياني في دعوته للمذهب الإسماعيلي وتنقلاته في بلاد المشرق الإسلامي حتى دُفن منفياً في وادي يَوْمغان في جبال بامير من مقاطعة بَدخشان (Mahamid, 2017: 57-73; Schadl, 2009: 63-93). وكان منفاه مرحلة جعلت ناصر خسرو يُبدع في أفكاره ومشاعره في المنفى بالعديد من آثاره الشعرية والأدبية والبعض من أعماله الفلسفية والحكمة، والتي كتبها جميعاً باللغة الفارسية، ولكن تركت أثرها على اللغة والثقافة العربية واللغات الأخرى بعد ترجمتها (حسّون، 2010؛ Hunza'i & Kassam, 1997; Hunsberger, 2000). هذا إضافة إلى عمله كداعي دعاه للمذهب الإسماعيلي في بلاد المشرق الإسلامي، والتي تعرّض على أثرها إلى الملاحقات والعزلة والنفي بعد عودته من رحلته الطويلة إلى مصر في رحاب الفاطميين في القاهرة ومجالس الدعوة في الأزهر، ثم رحلته إلى الحجّ. وكان قد عبّر في أشعاره عن شوقه وحنينه إلى بلده في خراسان ويتوق إلى نسيمها وجمال ربيعها وسماع أخبارها (حسّون، 2010؛ Schimmel, 2010: 9, 20-21, 228, 234; Hunsberger 2000: 2001; Schadl, 2009: 70; Mahamid, 2017).

لقد تعدّدت أسماء المجالس تبعاً للأهداف التي عُقدت من أجلها، فمنها ما عُرف بإسم "مجالس السّمَر والشّعَر والقصص"، "مجالس الوعظ"، "مجالس العلم/ مجالس الحكمة"، "مجالس الدعوة"، وكذلك "مجالس الذّكر" وغيرها. وكان الطّابع العامّ والمسيطر على هذه المجالس في التاريخ الإسلامي هو الطابع الديني، ولكن دخلت عليها أحياناً تأثيرات مختلفة حسب أهداف الجهة القائمة على عقدها وتنظيم مواعيدها، مثل الترويج لرفع مكانة شخصيات دينية معينة أو سياسية، ومنها أيضاً ما أخذ طابع التنافس الأدبي والشعري أو العلمي لمصلحة طائفة أو فئة والدعوة لأفكار دينية لخدمتها. ومنها ما أخذ طابعاً ترفيهياً واحتفالياً بمناسبة دينية، ومنها مجالس الذّكر والأوراد والتسابيح والحفلات الدينية من قبل الفرق والجماعات الصوّفية، وبعضها بدعوة أو مبادرات من الحكام والسلاطين، كما كان في العصر المملوكي مثلاً (Mahamid & Abu Alhajja, 2024 b. : 118-137).

3.3. الرّحلات الرّسميّة: البعثات والسّفارات ومرافقة الحُكّام والسّلاطين

بعض الغلماء وكبار الكتاب في قصور الحُكّام والسّلاطين شغلوا أيضاً سفراء أو مرافقين للطبقة الحاكمة في أسفارهم، كمستشارين وكتّاب لهم أو كبعثة رسميّة لمهامّ إداريّة. بعض هؤلاء الكتّاب عملوا على وصف رحلاتهم وتوثيقها، مع أنّ بعضها شمل نصوصاً مبنية على الخيال، على الرغم من كونها تقارير رسميّة قُدمت للحكّام وأصحاب السلطنة بعد عودتهم من رحلاتهم. هكذا يظهر من خلال نصوص الرّحالة عمارة بن حمزة في رحلته إلى ملك الرّوم؛ والشاعر الأندلسي يحيى بن الحُكّام (الغزال) (ت. 250هـ/864م) في رحلته إلى إمبراطور بيزنطية في القسطنطينيّة؛ ورحلة سلام التّرجمان الذي قام بسفارته في خدمة الخليفة العبّاسي الواثق بالله (حكم 227-232هـ/842-847م)؛ ورحلة ابن فضلان، وغيرهم (الموافي، 1995: 209-267). وحول هذا الصّنف من الرّحلات، نورد هنا بعض الأمثلة من أدبيّاتها:

- **رحلة ابن فضلان** إلى بلاد التّرك والرّوس والصقالبة عام 921م: اشتهر ابن فضلان بقيامه بهذه الرّحلة من خلال مؤلّفه "رسالة ابن فضلان" وصفاً لرحلته، ولم يكن معروفاً كبقية الرّحالة، إذ أنّ المعلومات الوحيدة عنه ما ورد في رسالته. وقد شغل ابن فضلان مولى في حاشية الخليفة العبّاسي المُقتدر بالله (320هـ/932م)، وكان ضليعاً بالدين الإسلامي ورجل علم وثقافة. وقد كلفه الخليفة العبّاسي المُقتدر عام 921م، بالإنضمام إلى سفارةٍ وجّهها من بغداد إلى مدينة بلغار عاصمة دولة الصقالبة أو بلغار الفولغا، إستجابة لطلب من حاكم الصقالبة لإرسال دعم ومساعدات وأموال ليبنى فيها مسجداً وتحصين البنايات الأمنيّة لصدّ هجمات الخزر والأعداء على دولته. وقد رافق ابن فضلان في رحلته فقهاء ومُعَلِّمون لتلقين أهل البلغار تعاليم الإسلام وكان معهم التّرجمان ليساعدهم فهُم لغتهم. رغم نجاح السّفارة في الوصول إلى البلغار بعد رحلة استغرقت نحو العام، لكنّها لم تحقق أهدافها كاملة. ولكن الأهمية المستفادة من هذه الرّحلة أنّها أمدّت الثقافة العربيّة بمعلومات تاريخية في عدّة مجالات من تاريخ تلك البلاد وشعوبها من السلاف والرّوس وغيرهم وأنماط معيشتهم التي كانت مجهولة في تلك الفترة، وأغنّت الثقافة العربيّة بها في المجالات الجغرافيّة، التاريخيّة والإجتماعيّة. كما وتكشف هذه الرّحلة عن الفارق الكبير في المستويات الحضاريّة بين المسلمين وبين الأقوام والشعوب في أوروبا في حينه (ابن فضلان، 1959؛ الموافي، 1995: 240-267).

- **رحلات وأسفار مُحيي الدين ابن عبد الظاهر** (ت. 1293م): اشتهر ابن عبد الظاهر كونه شغل قاضياً في مصر في دولة المماليك في عهد السلطان الظاهر بيبرس (ت. 1277م)، وكذلك شغل صاحب ديوان الإنشاء واشتهر من خلاله بألقاب منها "شيخ أهل الترسّل" و"الكاتب الناظم النائر". اشتهر أيضاً بمؤلّفاته التي وثّق بها مرافقته لثلاثة من سلاطين المماليك بأسفارهم خارج مصر، أهمّها: كتاب "الرّوض الزاهر في سيرة المَلِك الظاهر"، لتوثيق رحلته إلى البلاد الحجازيّة (ابن عبد الظاهر، 1976)؛ كتاب "تشرّيف الأيّام والعُصور في سيرة الملك المنصور"، لتوثيق حياة السلطان المنصور قلاوون (ت. 1290م) وعهده (ابن عبد الظاهر، 1961)؛ "الألطف الخفيّة من السّيرة الشريفة السّلطانية الأشرفيّة"، حول السلطان الأشرف خليل بن قلاوون (ت. 1293م) وعهده (ابن عبد الظاهر، 1902).

- **رحلات عبد الرحمن ابن خلدون** (ت. 1406م): لقد تنقّل ابن خلدون في المناصب عند حُكّام الأندلس، المغرب، تونس والمماليك في مصر، وقام بتنفيذ مهامّ البعثات الرسميّة في خدمة هؤلاء الحُكّام والتي وثّقها في كتابه "رحلة ابن خلدون". وكان آخرها مرافقة السلطان الظاهر برفوق (ت. 1399م) في سفره إلى دمشق، حيث طُلب من ابن خلدون مرافقته في حملته على بلاد الشام ضد هجمات تيمورلنك ملك التتار. في هذه الرّحلة، يدوّن ابن خلدون سيرته الذاتيّة ويوميّته ومراسلاته وأسفاره منذ انطلاقة من تونس عام 753هـ/1352م حتى استقراره في مصر، حتى أنّه وصف لقاءه مع تيمورلنك في مُخيّمه خارج أسوار دمشق، ويفصّل ما دار بينهما من حديث في هذا اللقاء، والرّد على استفسارات تيمورلنك حول أحوال بلاد المغرب (ابن خلدون، 2004: 263-296).

- رحلة بدر الدين أبو البقاء ابن الجيعان (ت. 1480م): رافق ابن الجيعان رحلة السلطان المملوكي الأشرف قايتباي في سفره من مصر إلى بلاد الشام عام 1477م، ووثق مسار هذه الرحلة والأماكن التي نزل بها وزارها السلطان من قلاع وخانات ومدن ومعسكرات حتى عودته إلى القاهرة، وسمي كتابه بـ "القول المستطرف في سفر الملك الأشرف قايتباي". أو "رحلة قايتباي إلى بلاد الشام" (ابن الجيعان، 1984).

4.3. وصف المدن ومعالمها الحضارية التاريخية والجغرافية

هناك عدة مؤرخين وعلماء ممن تميزوا بمؤلفاتهم في توثيق المعلومات ووصف المدينة التي عاشوا بها أو استقروا بها بشكل رئيسي وتأثروا بها بعد ارتحالهم إليها. فجاء وصفهم وتوثيقهم أسلوباً شاملاً يبين الوصف الشخصي للمدينة وبين تاريخها في فترات سابقة من عصور خلت وحتى أواخر السنوات من حياتهم ووجودهم بها. فمن هذه الأمثلة على سبيل المثال، شمل كمال الدين عمر ابن العديم (ت 660هـ/1262م) في كتابه "زبدة الحلب في تاريخ حلب"، وصف مدينة حلب وتاريخها قبل الإسلام وإسمها وبناءها في قديم الزمان، ثم وصفها في العصور الإسلامية المتغيرة حتى أواخر العصر الأيوبي بكل ما حوت من معالم الحضارة (ابن العديم، 1996). كذلك نهج محيي الدين ابن عبد الظاهر في توثيق أحوال وتاريخ مدينة القاهرة العاصمة المملوكية بمؤلف خاص بعنوان "الروضة البهية الزاهرة في خطط المعززية القاهرة"، إضافة إلى تقارير رحلاته مع سلاطين المماليك، كما ذكر سابقاً (ابن عبد الظاهر، 1996). كما أرخ تقي الدين أحمد المقريري (ت. 1442م) أيضاً لمدينة القاهرة في كتابه "المواعظ والإعتبار بذكر الخطط والآثار" (الخطط المقريرية)، والذي يُعتبر من أهم المؤلفات في تاريخ مصر وجغرافيتها ووصف عاصمتها (القاهرة) في العصر الإسلامي. يعتمد المقريري في توثيق المعلومات في الأساس على الملاحظات الشخصية والذاتية، ثم على مصادر أخرى ليستكمل الصورة الحضارية للمدينة قديماً وحتى عهده في أواخر العصر المملوكي. وقد قدم المقريري فيه عرضاً شاملاً لتاريخ مصر الإسلامية وعواصمها منذ الفتح الإسلامي حتى القرن الخامس عشر للميلاد، حيث يُعتبر الكتاب مصدراً مهماً للدارسين في تاريخ مصر وأثارها، ويُفصل فيه أوصافاً دقيقة لمعالم الحضارة المتنوعة من القصور والجوامع والمدارس والخوانق والحارات وخططها والحمامات والقياسر والخانات والأسواق وغيرها من المعالم الاجتماعية والاقتصادية في مدينة القاهرة (المقريري، 1998).

بينما أبو البقاء عبد الله البدرى (ت. 894هـ/1489م)، انتهج في مؤلفه "نزهة الأنام في محاسن الشام" وصف مدينة دمشق ومحاسنها ومعالم الحضارة فيها من بنايات وقصور ومساجد ومدارس، ثم يتحدث عن غوطة دمشق وأنهاها وأزهارها يوم كانت جنة الدنيا، وعن فاكهتها التي لا تُحصى. كما يعتمد البدرى وصف المعالم الاجتماعية والجمالية ما يجعل القارئ والمطلع عليها متفاعلاً باشتياق في هذه الأوصاف والجماليات لمدينة دمشق وحواضرها، وفي وصف متنزهات دمشق التي لا مثيل لها، مثل الربوة والجبهة وبين التهرين والشرفين والنبيرين. يستعرض البدرى أيضاً في وصفه التفاعلات الاجتماعية من عادات أهل دمشق في نزهاتهم واحتفالاتهم، ووصف أشعارهم بكل موسم وكل فصل، بل وكل نوع من الزهر والفاكهة والشجر، وعن صناعاتها التي اشتهرت في أرجاء العالم (البدرى، 1980). حتى أن البدرى يستذكر أحوال المدارس والمؤسسات الوقفية بمحاسنها في الماضي، وكيف وصلت إلى أوضاعها الحزينة وإهمالها وإستغلال أوقافها في زمانه، حيث يعبر البدرى في وصفه عن حزنه وأسفه لأوضاع المؤسسات الدينية والعلمية ولزوال جمالها ونشاطاتها في عهده، قائلاً: "ومن محاسن الشام (الصالحية) مشحونة بالزوايا والترب والمدارس، حتى أن بها قسبة دون مئيلٍ تمشي فيها بين تربٍ ومدارسٍ ببناء جميل استولى عليها المباشرون والنظار، فازلوا منها العين ولم يبق سوى الآثار. فكم من مدرسةٍ اندرست بعد الصلابة والتراويح، وأمست في ظلمةٍ بعد تلك المصاييح. وهي تقول أصبحت حاصلاً، بعد ما كان إيواني بالفراء عامراً أهلاً، وهذه تقول أضحيتُ مربطاً للبهائم، بعد ما كنتُ معبداً للقائم والصائم. وهذه تقول اتخذوني مسكناً، وهذه تقول جعلوني

مُتَبْنَأً. وهذه تقولُ هَدُونِي، وأخذوا سقفي وكشفوني. وهذه تقولُ أذربوا جداري، وباعوا الباب، وجعلوني مأوىً للكلاب. والأوقاف تستغيثُ إلى المولى المُغيث...". "فيا سَوْفَاهُ لِحُسْنِ "الجَرَكَسِيَّةِ" وحلاوة "الرُّكْنِيَّةِ"، ويا لَهْفَاهُ على "جامع الأفرم" و "النَّاصِرِيَّةِ"، تغيّرت تلك المعاهد، وغلقت أبواب تلك المساجد والمعابد. إنّا لله وإنا إليه راجعون. إنّ هذا لهُوَ التَّبْلَاءُ الجَسِيمُ، فلا حول ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم" (البدري، 1980: 190-191).

أما كتاب مجبر الدين الحنبلي الغلّمي (ت. 1522م) "الأُنسُ الجليل بتاريخ القدس والخليل"، يُعدُّ من أوسع المُصنَّفَاتِ التي تناولت وصف وتاريخ بيت المقدس منذ فجر الخليقة وحتى عام 1494م/900هـ، وهو من أوفر المصادر التي تناولت الحياة الدنيويّة والعلميّة وكذلك السياسيّة والإداريّة في بيت المقدس ومدينة خليل الرّحمن، وخاصّة في العهدين الأيوبي والمملوكي. فقد وصف الغلّمي الكثير من معالمها الدنيويّة والعلميّة والحضاريّة وأوقافهما، كالمدارس والمساجد والرُّبُط والزوايا وغيرها من المعالم. كما ذكر تراجم عدد كبير من العلماء والمشاهير بهما، والعلماء الوافدين إليهما من الذين شاركوا في الحياة العلميّة في فلسطين حتى العهدين الأيوبي والمملوكي (الغلّمي، 1999؛ محاميد، 2009: 141-200).

5.3. الواقعيّة في وصف الرّحلة وآثرها الأدبي والثقافي، الدّيني، المعرفي والإستكشافي

يتميّز هذا النوع من أدب الرّحلات بالبحث عن الحقيقة والمعرفة والتأكّد والمقارنة بذكر الغرائب والعجائب. ومن أهمّ المواضيع التي شملها هذا الوصف من الرّحلات: يوثّق الرّحالة في كتاب رحلته ما جرى من أحداث أثناء رحلته، وما صادفه من أمور أثناء رحلة قام بها لأحد البلدان، إضافة إلى الإنطباعات الشخصية لما شاهده وعايته وإجراء المقارنات بالتشبيه والإختلاف مع ما يحفظه من أثر في بلاده الأصليّة. هذا النوع من كتب الرّحلات يُعدُّ من أهمّ المصادر الصادقة والواقعيّة بعيدة عن الخيال والرّغبات، لأنّ الكاتب الرّحالة يستقي المعلومات والحقائق من المشاهدة الحيّة، والتصوّر المباشر، ممّا يجعل القارئ متشوّقاً بلهفة لقراءتها بأسلوبها المُمتع والمُسلّي، إضافة إلى كونها غنيّة بالمعلومات حول الظواهر الغريبة في عدّة مواضيع ومجالات علميّة وأدبيّة، منها:

- **الظواهر الجغرافية:** تشمل هذه المواضيع في وصف الرّحلات أسماء البلدان وجغرافيتها من التضاريس وحدود البلدان والأقاليم السياسيّة والجغرافيّة، وغرائبها من جبال وسهول وبحار، المسالك والطرق والمواصلات ووسائلها، وأحوال الطقس وميّزاته في كلّ بلد، إضافة إلى المخاطر والأحوال التي يمكن أن يواجهها الإنسان والرّحالة في تلك البلدان. هكذا نبغ العديد من الرّحالة المسلمين الذين أسهموا في إثراء المكتبة العربيّة وثقافتها بعلوم الجغرافيا وأدبيّاتها. يُعتبر القرن الرابع الهجري/ العاشر للميلاد زاخراً في ظهور مجموعة من أعلام الجغرافيين العرب والمسلمين في دراسة المجالات الإقليمية، ورسم الخرائط الجغرافيّة التي ظهرت وازدهرت في وضع أسس لعلم الجغرافيا بكلّ مجالاته، والذي أصبح مثلاً يُحتذى به وتطويره فيما بعد على يد الجغرافيين الأوروبيين في الغرب. وقد برز من هذه المجموعة من الجغرافيين أبو زيد أحمد بن سهل البلّخي (ت. 934م) وكتابه "صور الأقاليم"، ثم تبعه أبو القاسم إبراهيم الإصطخري (ت. 957م) ومؤلفاته في هذا السياق "صور الأقاليم" و "مسالك الممالك"، الذي عاصره أبو القاسم محمد ابن حوقل (ت. 977م) في مؤلفه "صورة الأرض"، وجاء من بعده شمس الدين المقدسي (ت. 990م) وكتابه "أحسنُ التقاسيم في معرفة الأقاليم". لقد اعتمد هؤلاء الجغرافيون على استعمال مصطلح "الإقليم" ليقصد به مكاناً جغرافياً له حدوده الخاصّة به تميّزه عن المناطق المجاورة من حيث التقسيمات والحدود الطبيعيّة أو الإداريّة والسياسيّة التي تخضع لنظام سياسي واحد وموحد، وغالباً ما تكون هذه الأقاليم ذات أصول إجتماعيّة موحّدة من الناحية العرقيّة واللغويّة (الموافي، 1995: 35-206)..

كما يبرز من بين هؤلاء الجغرافيين أبو الحسن عليّ بن الحسين المسعودي الهذلي (ت. 346هـ/957م) العالم والمؤرخ والجغرافي والرّحالة، والذي لُقّب أحياناً باسم "هيرودوت العرب". دمج المسعودي ما بين التاريخ والجغرافيا العلميّة في مؤلفاته المتعدّدة بالمواهب

العلمية والفلسفية. ومن أهم مؤلفاته التي اشتهر بها "مروج الذهب ومعادن الجوهر"، يجمع بين التاريخ والجغرافيا وغيرها من الموضوعات المرتبطة بها. وقد كان للرحالة المَسْعُودِيّ دور بارز ورائد في رسم خريطة للعالم يشمل فيها القارة الجديدة (الأمريكية) والتي وثّقها في حينه بإسم "أرض مجهولة" (المَسْعُودِيّ، 2005؛ الموافق، 1995: 141-146). وقد استعمل كولومبوس هذه الخريطة التي وضعها المسعودي فيما بعد للإستعانة بها لإكتشاف أمريكا عام 1492م، (أنظر الخريطة 2):



الخريطة 2: خريطة العالم للمَسْعُودِيّ.

المصدر: <https://ar.wikipedia.org/wiki/%D9%85%D9%84%D9%81>

بينما الرَّحَّالَة شمس الدين محمد المقدسي برز بكتاب رحلته الجغرافية حول الأقاليم وحدودها السياسية والجغرافية في كتابه "أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم" (المقدسي، 2003). كما يعرض أبو القاسم محمد ابن حوقل في مؤلفه "صورة الأرض"، صورة واضحة عن كروية الأرض بعهد مبكر من الإكتشافات الجغرافية. فيذكر ابن حوقل في وصفه لحدود فلسطين (جند فلسطين) في عهده على سبيل المثال، قائلاً: "وأما جند فلسطين، وهو أول أجناد الشام مما يلي الغرب - فإنه تكون مسافته للراكب طول يومين من رفح إلى حدّ اللجون، وعرضه من يافا إلى ربحا يومان، وأما زغر وديار قوم لوط والجبال والشراة فمضمومة إليها، وهي منها في العمل إلى أيلة، وديار قوم لوط والبحيرة الميثة وزغر إلى بلدان، وطبرية تُسمى الغور لأنها بين جبلين. وسائر بلاد الشام مرتفع عليها، وبعضها من الأردن وبعضها من فلسطين في العمل... " (ابن حوقل، 1992: 157-158). كذلك محمد الشريف الإدريسي (ت. 1166م)، أحد علماء الجغرافيا المسلمين، والذي خدم الملك روجر الثاني ملك صقلية، فقد ألف كتاباً تحدّث فيه عن جغرافية العالم بعنوان "نزهة المشتاق في اختراق الآفاق"، وأهم ما بيّن في كتابه حساب محيط الأرض (الشريف الإدريسي، 2002). كما برز أيضاً العديد من هؤلاء الرَّحَّالَة الجغرافيين المسلمين، أمثال: ياقوت الحموي وكتابه "معجم البلدان" (الحموي، 1977)، اليعقوبي (البلدان)، ابن خرداذبة (المسالك والممالك)، أبو الفداء (تقويم البلدان)، وغيرهم الكثير.

إبن فضل الله العُمري (749هـ/1349م)، من جهته، يجمع في مؤلفه "مسالك الأبصار في ممالك الأمصار" وصفاً دقيقاً للتقسيمات الجغرافية والإدارية لبلاد المسلمين شرقاً وغرباً والبلاد المجاورة لها كإلهند والصين. لذلك، يُعتبر العُمري جامعاً لعلم الجغرافيا والأدب والتاريخ، على الرغم من أنه لا يُعتبر رحالة كبقية هذه الطبقة، ولم يوثق معلوماته من خلال الرحلات والمشاهدات العينية، ولكنه بلغ بفكره الصائب وسعة مفهومه وثقافته وإطلاعه على الأمور، ما جعله يسلك رحلةً واسعة وتوثيقاً دقيقاً جمعت بين المجالات المختلفة: الجغرافية، التاريخية والاجتماعية، إضافة إلى المجالات السياسية والإدارية للأقاليم والممالك التي وصفها في مؤلفه. لقد اعتمد إبن فضل الله العُمري في كتابة مؤلفاته هذه على عدّة مصادر أهمّها: أ. استفاء وإستخلاص بعض المصادر من المؤلفات المدونة والقائمة في عهده، مثل كتاب "نزهة المُشتاق في اختراق الأفاق" للشريف الإدريسي، وكتاب "المسالك والممالك" لأبي عبيد البكري (ت. 1094م) وغيرهما. ب. اعتمد العُمري أيضاً على مصادر شفهية بسماعها من الآخرين من ذوي الخبرة والرّواية الموثوقة من أهل الإختصاص في هذه المجالات. ج. كما استفاد العُمري من عمله في دمشق أو من خلال وجوده في قصر السلطان المملوكي الناصر محمد بن قلاوون الصالحى، حيث التقى بالعلماء والوفود والتجار القادمين إليه من بلدان مختلفة، ومن هؤلاء الذين شاهدوا الأحداث والوقائع، أو عرفوا البلدان وأطلعوا على أخبارها من خلال أسفارهم ورحلاتهم. نتيجة لذلك، يبدو من خلال مؤلفه وكأنّ العُمري قد وثّق رحلة قام بها بنفسه عبر الأقاليم والمسالك والممالك المختلفة التي أدرجها في كتابه (إبن فضل الله العُمري، 2010).

- الأحداث والموضوعات التاريخية: يركّز بعض الرحّالة على الأمور ذات الطابع التاريخي في وصف الشعوب والناس في كلّ بلد، أصنافهم وتاريخهم ولغاتهم ولهجاتهم، معالم الحضارات في كلّ بلد من بناء وقصور وغيرها، هذا إضافة إلى نظام الإدارة والحكم والتقسيمات الإدارية في تلك البلدان. هكذا يُفهم مثلاً من وصف إبن خلدون في كتاب رحلته لمجالات عدّة منها ما يدور حول الحُكّام ونظامهم وقصورهم، علاقاتهم الاجتماعية والسياسية وكذلك نشاطاتهم العسكرية، والمراسلات الأبية والشعرية وغيرها. فيقول إبن خلدون مثلاً في وصفه لمدينة القاهرة: "فانتقلت إلى القاهرة ... فرأيت حضرة الدنيا، وبُستان العالم، ومَحْشَر الأمم، ومدرج الدّر من البشر، وإيوان الإسلام، وكرسيّ الملك، تلوح القصور والأواوين في جوّه، وتزهر الخوانك والمدارس بأفاقه، وتضيء البدر والكواكب من علمائه، قد مثل بشاطئ بحر النيل نهج الجنة ومدفع مياه السماء..." (إبن خلدون، 2004: 199-200). أمّا الرحّالة المقدسي فيذكر في كتاب رحلته "أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم" معرفاً نفسه في رحلته إلى بلاد المشرق، حين سُئل: "أنت مصري؟ فأجاب: "لا بل فلسطيني". ثم ذكر في وصف رحلته قائلاً: "ولقد سُميتُ بسنة وثلاثين إسماءً دُعيتُ وخُوطبتُ بها مثل: مقدسيّ وفلسطينيّ ومصريّ ومغربيّ وخراسانيّ وسلميّ ... وعراقيّ وبغداديّ وشاميّ ... وذلك لاختلاف البلدان التي حللتها. وكثرة المواضع التي دخلتها" (المقدسي، 2003: 68).

هناك بعض الرحّالة من استغلّ وقته وقوة حافظته ومعينته للأحداث والمشاهدات وأفاق اهتماماته ليوّسع دائرة الموضوعات في وصفه ليجمع مواضيع متنوّعة مثل الجغرافيا والتاريخ والظواهر الاجتماعية وما شاهده من غرائب الأمور وعجائبها. فمن خلال وصف مدينة القاهرة في منظور ناصر خسرو في كتاب رحلته (سفرنامه)، يمكن ملاحظة ذلك من التنوّع في توثيقه للأحداث وسعة الإطلاع والإهتمام بما رآه وما سمعه وما اهتم بالتعرّف عليه والتحقّق منه من أحوال البشر وقدرته على استعراض الآراء ونقدها، ودقّة الملاحظة والتفكير بها للوصول إلى الحقيقة. وقد وثّق معلوماته بموضوعية حول البلدان والأماكن والظواهر التي مرّ بها في أسفاره الطويلة من موطنه في بلاد المشرق مرّاً بعدة مدن في بلاد فارس، شرق الأناضول ومدن بلاد الشام مثل حلب ودمشق ومدن أخرى في طريقه، وفلسطين ووصفه لمدن عكا وطبريا والقدس والخليل وما بها من معالم دينية وبنائيات وزراعة ومقامات ومزارات لقبور الأنبياء والصالحين، ثم مصر والحجاز والعودة إلى بلاده طريق البصرة في جنوب العراق. فيؤكّد ناصر خسرو دقّة ما نقله

ووثقه بأمانة في كتاب رحلته (سفرنامه)، قائلاً: "وقد وصفت بأمانة ما رأيته في رحلتي، وأما ما سمعته وكان عليه اعتراض فلا ينسبه القراء إلي ولا يؤخذوني أو يلوموني عليه..." (ناصر خسرو، 1993: 179؛ Wolfe, 2015).

فمن ضمن ما وصفه ناصر خسرو بشكل دقيق ومفصل على سبيل المثال، كان وصف مدينة القاهرة التي استقر بها مدة ثلاثة أعوام ذكراً للبنية والحياة الاجتماعية والدينية بها، والأسواق ومراكز التسوق والبازارات، حتى أنه وصف الزراعة والحقول الزراعية والمساحات الخضراء وما بها من أنواع الخضار والفواكه، إضافة إلى وصف أصحاب الحرف (الصناعة) (ناصر خسرو، 1993: 115-102؛ Hunsberger, 2000: 140-173; Mahamid, 2005: 355-366). كما ركز ناصر خسرو في وصف ملامح الإمام والإحتفال السنوي الكبير لفتح الخليج (نهر النيل)، وقد أبرز من وصف "السلطان" أي الإمام (ال خليفة الفاطمي) ومعاملاته وسلوكياته، ومعاملته مع اللاجئين والعرباء، إضافة إلى الأمن والأمان والأمانة في مدينة القاهرة الفاطمية. لقد عبر ناصر خسرو عن إعجابه بوصف القصور الفاطمية، والمائدة السلطانية في القاهرة، والولائم التي اعتاد الخليفة الفاطمي أن يدعو الناس إليها مرتين في العام في عيدي الفطر والأضحى، فيستقبل الخاصة والمقربين في قصره، والعامّة يُدعون إلى مائدة خاصة بهم في قصور أخرى (ناصر خسرو، 1993: 124-108؛ Wolfe, 2015). كذلك الأمر، فعل موفق الدين عبد اللطيف البغدادي (ت. 629هـ/1232م) ما وصفه في كتاب رحلته "الإفادة والإعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعينة بأرض مصر". حيث عرض في توثيق رحلته إلى مصر بوصف خواصها والميزات العامّة لمصر، وفيما تختص به من الثبات ومن الحيوان، وما شاهد من آثارها القديمة ومن غرائب الأبنية والسفن، وما شاهده من غرائب الأطعمة عند الخاصة وعند العامّة من الناس (البغدادي، 1983).

- **المظاهر الاجتماعية:** يركز البعض من الرحالة أكثر من غيرهم على وصف رحلاتهم في الأمور الاجتماعية المرتبطة بالمجتمعات البشرية من العادات والتقاليد والحياة الاجتماعية التي عاينها الرحالة من حيث أساليب الحياة والمعاملة، اللباس، الأمور الدينية، أنواع الأطعمة والأكل وعاداته، التجارة والأسواق وغرائب بضاعتها. فيلاحظ هنا أيضاً التنوع في التركيز على الأمور الاجتماعية بين الرحالة وإهتماماتهم. هكذا يفهم من أسلوب الوصف في رحلة محمد بن جبير الأندلسي وإهتماماته في كتاب رحلته بتسميات مختلف: "رحلة ابن جبير" أو "تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار" والمسمّاة أيضاً "إعتبار الناسك في ذكر الآثار الكريمة والمناسك". على الرغم من أن ابن جبير لم يركز كثيراً على الجوانب الطبيعية والجغرافية في رحلته، ولكنها تُعتبر من أهم الرحلات في العالم الإسلامي، حيث تتجلى أهميتها في الوصف الدقيق لمشاهداته وتدوينه للآثار والملاحظات الثقافية والدينية، الاجتماعية والتاريخية بأسلوب كتابة اليوميات حسب الموقع والتاريخ. ويصف كل مدينة مرّ بها وما شاهده من العجائب والغرائب في تلك البلدان، والأحوال الاجتماعية والسياسية والأخلاقية. كما اهتمّ ابن جبير في وصف النواحي الدينية والمساجد والمشاهد وقبور الصحابة ومناسك الحجّ والنشاطات العلمية من مجالس الوعظ والمارستات والمدارس وغيرها من المعالم الحضارية الإسلامية (إبن جبير، 2012؛ الجيلاوي، 2024: 283-304؛ Dorpmüller, 2016: 163-183; Wolfe, 2015; Grammatico & Werner, 2015; Bush-Joseph, 2013). كما وصف ابن جبير أيضاً في رحلته إمارات الصليبيين في الساحل الشامي مثل مدينة صور وعكا، وأسرى المسلمين في أيديهم، ويعرض وصفاً للميزات والعلاقات الاجتماعية للفرنجة في بلاد الشام وعلاقتهم مع الآخر من المحليين المسلمين والمسيحيين أيضاً. كذلك يصف ابن جبير ما لقيه من الأحوال في البحر حتى وصوله إلى جزيرة صقلية بعد أن ترك عكا وهي في أيدي الصليبيين، وركوبه مع تجار النصارى، حتى وصل إلى بلده غرناطة في الأندلس يوم الخميس 22 محرم 581هـ/1185م (إبن جبير، 2012: 276-286). ويبرز الباحثون الغربيون عن تقديرهم لهذا التعامل والعلاقة في سفر الحجّاج المسلمين في السفن الأوروبية التي حملتهم إلى أمكنهم المقدسة، وذلك خوفاً من العواصف البحرية وسوء الأحوال الجوية، وعدم خوف المسلمين من هؤلاء الفرنجة والتجار النصارى.

كما يبرز الباحثون الغربيون ما أشاد به ابن جُبَيْر بالجاليات المسيحية في الأراضي الإسلامية والجاليات الإسلامية المماثلة في الأراضي المسيحية (الجيلوي، 2024: 285-284؛ Bush-Joseph, 2013؛ Grammatico & Werner, 2015).

ومن بديع ما وصف به ابن جُبَيْر ما عبّر عنه في وصف بعض المُدن الشامية والتشابه بينها وبين مدن الأندلس كمدينة إشبيلية وغرناطة وغيرها من حيث جمالها، جغرافيتها ومجتمعاتها. ففي وصف مدينة دمشق مثلاً، يقول ابن جُبَيْر: "جَنَّة المشرق، ومطلع حُسنه المُؤنق المشرق ... وعروس المُدن ... قد تحلّت بأزاهير الرّياحين، وتجلّت في حُلل سُندسية من البساتين ... وتشرفت بأن أوى إله تعالى المسيح وأمّه ... منها إلى رُبوة ذات قرار ومعين ... ورياض يُحيي النفوس نسيماً العليل ... قد سئمت أرضها كثرة الماء حتى اشتاقت إلى الظّما... قد أهدقت البساتين بها إحدائق الهالة بالقمر ... والله صدقُ القائلين عنها: إن كانت الجنة في الأرض فدمشق لا شكّ فيها، وإن كانت في السّماء فهي بحيث تُسامئها وتحاذيها..." (ابن جُبَيْر، 2012: 234-235). وكما يبدو أنّ العديد من الرّحالة الذين جاءوا بعد ابن جُبَيْر قد اقتبسوا من أوصافه وأخذوا عنه بعض ما وثّقه في رحلته. فيلاحظ، أنّ الرّحالة أبو البقاء البدري يذكر هذا الوصف والمحاسن لمدينة دمشق ومكانتها نقلاً ممن سبقه في ذلك عن الرّحالة الأندلسيين، مثل الشريشي وابن جُبَيْر (البدري، 1980: 213).

أما حول رحلة ابن بطوطة مثلاً، بعنوانها "تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار"، لم يكن ابن بطوطة مهتماً بالوصف الجغرافي أثناء رحلته بقدر ما كان اهتمامه بوصف المزايا الإجتماعية للمجتمعات الإسلامية وغير الإسلامية ليظهر الفوارق بينها وما فيها من غرائب وعجائب من حيث الديانات، العادات والتقاليد، اللباس وأنواع الأكل والأطعمة، فيبالغ في مدح ما أعجبه منها ويذم ما يراه مُستنكراً ومخالفاً لعادات وتقاليد الإسلام. وقد بدأ ابن بطوطة رحلته عام 1325م من طنجة في المغرب إلى جاوة (جاكرتا/ إندونيسيا حالياً) في بلاد المشرق، واستغرقت ما يقارب خمساً وعشرين سنة، وصف فيها ابن بطوطة الفروق بين المجتمعات الإسلامية في الهند والصين وبين المجتمعات الأخرى فيها من أصحاب الديانات الهندوسية وغيرها، وما رآه من غرائب وعجائب في سلوكياتهم وعاداتهم في الأطعمة وطريقة التعامل مع الموتى وحرهم (Dunn, 2012: 183-212).

فمن خلال عنوان كتاب رحلة ابن بطوطة، يمكن طرح الاستنتاجات حول المواضيع التي ركّز على وصفها، حيث كانت الغالبية العظمى منها تتمحور حول المجالات والأمور الإجتماعية بين الشعوب الإسلامية المتنوعة، ويؤكد على وحدة المعنى والمبنى بين المسلمين في البلدان المختلفة من العالم الإسلامي، مما يدلّ على الوحدة الثقافية الإسلامية. فأغلب ما ورد في كتاب رحلته من ملاحظات ثمينة كانت عن الناس، لا عن الأرض. وقد امتدح ابن بطوطة الشعوب المسلمة التي زارها، كما وصف أنماط تديّهم أو أعرافهم الإجتماعية المشتركة والمتشابهة في إكرام الضيف والشجاعة ومكارم الأخلاق في بلاد الشام والعراق وبلاد فارس، عُمان، اليمن، الأناضول وغيرها. وقد قال حول مُسلمي الأناضول بأنهم أجملُ الناس صُوراً، وأنظفهم ملابس، وأطيبهم مطاعم، وأكثرُ خلق الله شفقةً (ابن بطوطة، 1987؛ 81-136: Dunn, 2012). وأثنى على جماعات الأخية هناك قائلاً: "فله دُرهم من طائفة، ما أكرم نفوسهم وأشدّ إيثارهم، وأعظم شفقتهم على الغريب، وألطفهم بالوارد، وأحبهم فيه، وأجملهم احتفالاً بأمره..." (ابن بطوطة، 1987: 292-294).

أما ما أورده ابن بطوطة من وصف للمجتمعات الغير إسلامية في الهند والصين وغيرها فيركّز على الأمور الإجتماعية الغربية منها والمخالفة للعادات والتّهج والمعتقدات الإسلامية (Dunn, 2012: 183-212, 241-265). فمثلاً، يصف ابن بطوطة مدى شعوره وتأثره حين رأى حرق المرأة وهي على قيد الحياة مع جثمان زوجها المنوفاً. وهنا، يمكن أن نورد بعض هذه الأوصاف من مشاهدات ابن بطوطة تلخيصاً لما رآه من عجائب وغرائب، فيقول في ذلك: "ولما رأيتُ ذلك (حرق المرأة) كِدْتُ أسقط عن فرسي، لولا أنّ

أصحابي تداركوني بالماء، فغسلوا وجهي، وانصرفت... و"يُغرَقُ كثيرٌ منهم أنفسهم في نهر "الكناك" (الغانج)، وهو الذي إليه يحجُّون، وفيه يُرمى برماد هؤلاء المحرِّقين"... "وأهل الصِّين كُفَّار يعبدون الأصنام، ويحرقون موتاهم كما تفعل الهنود... وكفَّار الصِّين يأكلون لحوم الخنازير والكلاب ويبيعونها في أسواقهم"... "وبلاد الصِّين -على ما فيها من الحُسن- لم تكن تُعجبني، فمتى خرجتُ عن منزلي رأيت المُنكرات الكثيرة، فأقلقتني ذلك حتى كنت ألام المنزل، فلا أخرج إلا لضرورة"... "وكنْتُ إذا رأيتُ المسلمين بها فكأنِّي لقيتُ أهلي وأقاربي"... "وأهل الصِّين أعظم الأمم إحكاماً للصناعات، وأشدَّهم إتقاناً فيها..." (ابن بطوطة، 1987: 424، 641، 650-651).

أما الرَّحالة والمؤرِّخ أبو الحسن علي الهَرَوِي (ت. 611هـ/1215م)، والذي عُرف بالسَّائح الهروي، أصله من هراة ومولده بالموصل وتوفى ببلب، فقد وضع كتاب رحلته تحت عنوان "الإشارات إلى معرفة الزيارات" بعد أن طاف البلاد وقضى حياته مرتحلاً في أنحاء المشرق والمغرب الإسلامي. يقتصر هذا الكتاب على ذكر الزيارات الدينية والاجتماعية للمزارات والمقامات وقبور الأنبياء والصحابه وأولياء الله الصالحين في البلدان التي زارها الهروي. وفي ذلك يقول: "وها أنا أبتدئ بذكر الزيارات من مدينة حلب وأعمالها والبلاد التي تليها، ثم أذكر الشَّام بأسرها، والسَّاحل بأسره، وبلاد الفرنج وفلسطين والأرض المقدَّسة وجميع زيارات البيت المقدَّس ومدينة الخليل، وديار مصر بأسرها والصعيدين، والبلاد البحرية، والمغرب، وجزائر البحر، وبلاد الرُّوم، وجزيرة ابن عمر، وديار بكر، والعراق بأسرها، وأطراف الهند، والحرمين الشريفيين مكَّة والمدينة واليمن وبلاد العجم" (الهروي، 2002: 14-15).

من جهة ثانية، تميَّز الرَّحالة زكريا بن محمَّد القزويني (ت. 1283م) عن غيره بأسلوب الكتابة والوصف لرحلاته حسب الموضوع. فمثلاً كتابه "آثار البلاد وأخبار العباد" شمل فيه وصف الآثار والمعالم الحضارية من أنواع البنايات إضافة إلى الأمور الاجتماعية حول أخبار العباد في البلدان التي زارها (القزويني، 2013). كما دوَّن القزويني عدَّة مؤلفات ينفرد كلٌّ منها بموضوع يختلف عن الآخر مثل مواضع الجغرافيا والسياسة والإدارة، مثل كتاب "عجائب البُلدان"، "كتاب الأقاليم"، "كتاب البُلدان"؛ كتاب "صفة الأرض"؛ وكتاب "عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات".

4. الرَّحالة العرب وأدبياتهم في عصر الحداثة

الرَّحلة والتَّرحال إلى البلدان الأوروبية والأمريكية كان هدفاً لافتاً للنظر بين الرَّحالة العرب بعد اكتشاف أمريكا على يد كريستوفر كولومبوس عام 1492، وانحسار العرب والإسلام من الأندلس وما تلاه من إكتشافات ورحلات للعالم الجديد ومساراته البحرية. هذا التجديد والحداثة شجَّع الرَّحالة من البلدان الغربية لتكثيف رحلاتهم إلى بلدان العالم العربي والإسلامي، وخاصة لمعرفة وكشف ما تحويه رحلة الحج من معاني دينية وروحانية عند المسلمين. وهكذا، قام وولف بتجميع كتابه للتعرف على مجموعة من قصص الحج من عدَّة رَحالة غربيين، وللتعرف على الدين الإسلامي المتطوِّر باستمرار، قديمه وحديثه، وفهم مكانته في عالم متغيِّر كدين له وجوه كثيرة ولكن بقلب واحد (Wolfe, 2015). كذلك أيضاً، ومع تقدُّم البلدان الغربية والأوروبية في الحداثة، إزداد الإهتمام بين الرَّحالة العرب والمسلمين من البلدان العربية والإسلامية إلى أخذ دور في هذا المسار والبحث عمَّا هو جديد في هذا العالم، وخاصة منذ أواخر العهد العثماني، ولكن بأهداف جديدة ومختلفة. كانت خرائط المُسعودي التي وضعها في عهده منذ القرن العاشر منتشرة في بلاد الأندلس، والتي أستعان بها كولومبوس في رحلة إكتشافه للعالم الجديد (أمريكا)، ممَّا يدلُّ على وجود اتصال ومعرفة بين أوروبا والبلاد الجديدة في أمريكا حتى قبل إكتشافها على يد كولومبوس. إضافة إلى دور العرب في وضع الخرائط هذه لتكون عوناً وإرشاداً لرحالة الغرب لإكتشاف ما يدعى أنَّها بلاد وقارة جديدة وغير معروفة، نركِّز هنا عن دور الرَّحالة العرب في هذا السِّياق من الرَّحلات الإِسْكَتْشافية بحثاً عن الحقائق، ولأهداف معرفية والتكسُّب أو بسبب ظروف التغيير والتجديد السياسي والإقتصادي للسيطرة الغربية

على بلاد العرب والمسلمين. هكذا فعل إلباس حنّا الموصلية، القيسيس والرّحالة العراقيّ في رحلته إلى أمريكا كُتبشّر مسيحيّ فيها، وكأول رحلة شرقية إلى العالم الجديد دامت حوالي عشر سنّوات حتى عام 1683م (الموصلية، 2001).

كانت اليوميات التي سجّلها الموصلية في رحلته ذات أهميّة خاصّة لكونها كُتبت باللغة العربيّة عن القارة الأمريكيّة في حينه. فقد سجّل الموصلية يومياته وتوثيقه لها بنصّ عربيّ عن أميركا الوسطى والجنوبية، والذي يُعدّ وثيقةً ومصدراً فريداً حول حياة وحضارة أهل تلك البلاد الأصليين من الأعراق المختلفة مثل "المايا" و"الإنكا" وغيرهم من الهنود كما ذكرهم الموصلية في تلك الفترة من التاريخ. وأهميّة ما وثّقه الموصلية أيضاً هو مصائب تلك الشعوب الأصليّة والفاجعة التي حلّت بهم نتيجة النهب الاستعماريّ والسيطرة الأوروبيّة على تلك البلاد وما أصابهم من أضرار في أسلوب حياتهم وخوفهم على مصيرهم من أطماع الأوروبيين في السيطرة والتسلّط. وقد وصف الموصلية طرق معيشة تلك الشعوب الأصليّة وطبائعهم وعاداتهم وفوارق الحياة بينهم وبين المحتلين من الإسبان. إضافةً إلى وصف الغرائب من أنواع المعادن والحيوانات والطيور والنباتات التي شاهدها في رحلته، وصف الموصلية أيضاً المُنّ ومسالكها من الطُرق والمعالم الهامة من القصور والبنائيات، وكذلك الظواهر الطبيعيّة والجغرافيّة من الجبال والأنهار وكلّ ما لفت أنظاره إليها من مظاهر حضارتهم (الموصلية، 2001: 46-113).

كان الرّحالة الأوروبيون يقومون برحلاتهم إلى مصر وبلاد الشام في العصور الإسلاميّة الوسطى بدوافع الحماس الديني، ومنهم من كان يستغل ذلك لتحقيق دوافعه التجارية في شرق البحر الأبيض المتوسط. وبفضل العلاقات السياسيّة للسلطنة المملوكيّة في القاهرة مع التجار الأوروبيين، كان الحجاج والمسافرون الأوروبيون يقيمون في أراضي السلطنة، وعلى الأغلب كان هؤلاء يسافرون على شكل مجموعات لاعتبارات إجتماعية ولأسباب تتعلق بالسلامة والفائدة العملية. وقد أسهم هؤلاء الرّحالة الغربيون من خلال أعمالهم الأدبية، إلى حدّ ما، بنقل الروايات والأوصاف حول الأرض المقدّسة وعرضها لقراءهم في وصف المعالم الدنيّة المقدّسة في بلاد الشرق والمرتبطة بـ"بلاد الشام". كما بذلوا جهدهم في إنتاج نصوصهم بهدف الترفيه، كما أنّها تميّزت أيضاً بالمزايا التعليميّة. وفي العصر الحديث إستمرّ الرّحالة الأوروبيون في نهجهم الوصفي، على الرّغم من ظهور الدوافع الإستعماريّة الحديثة أيضاً (Ciggaar, 1966: 21-44; Howard, 1980; Campbell, 1988: 2-3, 6; Rubiés, 2000: 5-35; Tolan, 2002: 245-252; Borm, 2004: 13-26; Chareyron, 2005; Cooke, 2013: 16-17; Frenkel, 2020: 705-724).

بعد انتقال مراكز الحكم والقوّة من البلدان العربيّة والإسلاميّة إلى أوروبا والغرب، وخاصّة بعد اكتشاف العالم الجديد في أمريكا وازدياد فعاليّات الرّحالة الغربيين إلى البلدان العربيّة والإسلاميّة مع بداية النهضة في العصر الحديث، بدأت الرغبة تترسّخ لدى المسلمين في الخروج من حالة الإنغلاق، والانفتاح نحو الغرب للتعرف على ما جاء به من تجديد للحضارة الإنسانية بنظرتهم الإستشراقيّة والإستعماريّة تجاه المشرق الإسلامي والشعوب الأخرى، وأهدافها للسيطرة الإستعماريّة الغربيّة على بلاد المسلمين. وهكذا أخذ الرّحالة العرب الجُدّد في هذه الفترة من عصر الحداثة يعملون على أساس التعلّق بالموروث الحضاري للإسلام مع الشغف في الأخذ بالمستحدثات من الحضارات الغربيّة. شكّلت الرّحلات الجديدة للرّحالة العرب دوراً رئيساً في محاولات كشف العرب لأوروبا والتعرف عليها من خلال ثوبها الجديد عن طريق النقد بتقريب غرائبه وحضارته من جهة، ثم بالمدح أحياناً بإظهار محاسنه من جهة أخرى. وهكذا بدأت فترة جديدة نشطت فيها الرّحلة العربيّة نشاطاً كبيراً خارج حدود العالم الإسلاميّ بتّجاهها نحو أوروبا وأمريكا، وخاصّة بدءاً من القرن التاسع عشر.

لقد اختلفت مواضيع الوصف في أدب الرّحلات وأهدافها حسب الفترة الزّمنيّة التي جرت فيها تلك الرّحلات. فنظرة الرّحالة العرب الأوائل في العصور الوسطى، منذ عصر الفتوحات وحتى القرن العاشر للميلاد، نشأت على الشّعور بالغلبة السياسيّة والحضاريّة

للإسلام بعد انتشاره في مشارق الأرض ومغاربها، إن كان ذلك بواسطة الفتوحات والقوة العسكرية أو بالدعوة ودخول بعض الشعوب إلى الإسلام بالطرق السلمية. فالإنتهاء إلى ثقافة الفاتح والحاكم عند الرحالة العرب والمسلمين قد عززت الأساس الديني الحضاري وأحياناً الأساس العرقي والعصبيّة وجعلته معياراً لوصف الأشياء ومشاهداتهم أثناء الرحلات من معتقدات وتقاليد وعادات، مع النظرة في أفضلية الثقافة الذاتية على ثقافة الآخر، بالإعتماد على المقارنة والتشبيه.

مع انتشار الاستعمار والسيطرة الأوروبية في البلدان العربية والإسلامية منذ القرن التاسع عشر، إزدادت الرحلات إلى الغرب من قبل المثقفين العرب، إن كان ذلك بهدف الهجرة من أجل العلم والمعرفة، أو هجرة للبحث عن مكاسب حياتية في البلدان الأوروبية وأمريكا، أو كبعثات رسمية وسفارات. وكما يبدو، فإن غالبية الرحلات إلى أوروبا في تلك الفترة وضعت في إهتمامها وصف الحداثة فيها وكل ما هو غريب وعجيب وغير مألوف في البلدان العربية والإسلامية كالصناعات والأوضاع العسكرية المتقدمة والحديثة في تلك البلدان الأوروبية وأثرها على عوامل السيطرة على البلاد الأخرى. فعلى سبيل المثال، يصف محمد بن الطاهر الفاسي في رحلته من بلاد المغرب إلى بلاد الإنجليز سفيراً للمغرب عام 1860م، ما شاهده من العجائب والغرائب، والتي وثّقها بكتاب أسماه: "الرحلة الإبريزية إلى الديار الإنجليزية". يصف فيها الفاسي كلّ ما شاهده منذ بداية سفره في المركب البحري من طنجة (المغرب) وحتى عودته إلى بلاده بعد رحلة استغرقت سبعين يوماً. وقد ركّز اهتمامه في وصف مدينة لندن الحديثة بشكل دقيق، وما رآه غريباً عما هو مألوف في بلاده. ويركّز الفاسي على الناحية المالية والإقتصادية والعسكرية والصناعات الحديثة وتدريب الجيش، وأثر ذلك في هذا التقدّم الذي لاحظته في بلاد الإنجليز (الفاسي، 1967).

أما رحلة رفاعة رافع الطّهطاوي (ت. 1873) إلى فرنسا، والتي وثّقها في كتابه "تخليص الإبريز في تلخيص باريز"، تمثل علامة بارزة في التاريخ الثقافي المصري والعربي الحديث. ففي عهد حكم محمد علي باشا في مصر وإهتمامه بالعلم وإرسال بعثات طلابية من مصر إلى أوروبا، وخاصة إلى فرنسا، عُيّن الطّهطاوي بأن يكون مُشرفاً على رحلة البعثة الدراسية المصرية المتوجهة إلى باريس، ليقوم في رعاية شؤون الطلبة المصريين هناك، والإهتمام في أمورهم. فيعتبر كتاب رحلة الطّهطاوي من أهم الكتب العربية التي وضعت خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر، والذي استغرق في تأليف وتدوين معلوماته حول هذه الرحلة ما يقارب الخمس سنوات. فكانت محتويات الوصف عملاً بديعاً يوضّح فيها ما كانت عليه أحوال العلوم التاريخية والجغرافية والسياسية والاجتماعية في كلّ من مصر وفرنسا في تلك الفترة، الأمر الذي جعل من الوالي محمد علي باشا يعمل على الاستفادة من تلك المعلومات حتى تصبح مصر تجاري بتقدمها وحداثتها الأوضاع في أوروبا بالإعتماد على هذه البعثات والإرساليات العلمية والمعلوماتية والمساعدة على نشر الحداثة في مختلف مركباتها والتطور العلمي والصناعي وترسيخها في مصر (الطّهطاوي، 2012).

يُعتبر كتاب الطّهطاوي مصدراً يلخّص أوضاع الغرب عامة، وليس لمعرفة صورة فرنسا فقط في تلك المرحلة من تاريخ الحداثة والتطور العلمي والصناعي مع التغيرات السياسية وتوجهاتها. إذ أنّ الطّهطاوي يحوي في كتابه معلومات تاريخية وجغرافية وسياسية واجتماعية، والتي ينبغي إجراء الإصلاحات في مصر لما يراه مستحسناً في فرنسا. فيلاحظ أنّ الطّهطاوي يمدح ويُقدّر بالإعجاب ما يستحسنه في فرنسا والغرب، بينما يوجّه النقد لما لا يعجبه بأسلوب المقارنة بين الأحوال في فرنسا مقارنة بالأوضاع في مصر. الأمر الذي يضفي صبغة عامة عن سياسة واهتمام الغرب في التحكّم والسيطرة على الآخرين، ليس فقط بالأساليب العسكرية والإقتصادية، بل أيضاً بالمجالات الثقافية والفكرية بنظرة إستشراقية (الطّهطاوي، 2012).

كما يظهر في أبحاث غالبية الدارسين حول أسباب الهجرة والتّرحال من البلدان العربية والإسلامية إلى بلاد الغرب وأمريكا في هذه المرحلة، كانت عوامل سياسية وإقتصادية واجتماعية وأدبية ونفسية. لذا، يُلاحظ أنّ هذه الأسباب أدت إلى هجرة الكثير من اللبنانيين

والسوريين إلى البلدان البعيدة في الأمريكيتين الشماليّة والجنوبيّة. فكما هو معروف، هؤلاء المرتحلون والمهاجرون، الذين عُرفوا باسم "شُعراء/ أدباء المهجر"، كان لهم دور في إثراء الأدب العربيّ بإنتاجاتهم المهجريّة من الشعر والأدب والفلسفة، أمثال جبران خليل جبران، إيليا أبو ماضي، ميخائيل نعيمة، رشيد سليم الخوري، إلياس فرحات وغيرهم الكثير. وقد برزت أعمالهم الأدبية متأثرة بدوافع الهجرة ومغادرة الأوطان، الترحال والإبتعاد عن الأهل وما به من معاناة وآلام نفسيّة وحسيّة تُعمّق فيهم الحنين والشوق للأهل والإحساس بحبّ الوطن، وقد بدا ذلك جلياً في غرس إرثهم من الشعر والأدب في وصف ما تأثروا به في بلاد المهجر والترحال (محمد، 1976؛ خير الدين، 2017).

ولقد ساهم شعراء وأدباء المهجر في بلدان ترحالهم في تأسيس وتنظيم الجمعيات والروابط الثقافيّة والإجتماعيّة، ممّا أثرى في ترسيخ هذا النوع من أدب المهجر في الثقافة العربية وأدبها. ففي أمريكا الشماليّة، نظّم هؤلاء الشعراء والأدباء "الرّابطة القلميّة"، ومن أشهرهم جبران خليل جبران وميخائيل نعيمة وإيليا أبو ماضي ونسيب عريضة وغيرهم. كما قام أدباء وشعراء المهجر في "أمريكا الجنوبيّة" بإنشاء "العصبة الأندلسيّة" بقيادة ميشال معلوف ورشيد سليم الخوري وإلياس فرحات وغيرهم العديد، ثمّ تبعتها روابط ونوادي أدبيّة أخرى. يُمكن ملاحظة المواضيع التي كتب حولها أدباء المهجر وبرزوا فيها شعراً ونثراً وفلسفة وطرائف شتى، أنّها ذات طابع إجتماعيّ وإنسانيّ، التسامح الديني، الحنين إلى الوطن، أو ذات نزعة روحية، فلسفيّة وتأمليّة. هكذا يمكن أن نستقرئ من فلسفة جبران خليل جبران في كتابه "النبي"، ما أراد أن يتوصّل إليه ويبرزه من تجاربه الذاتية ونظراته إلى الحياة والموت، حيث ضمّن كتابه كلّ آرائه الفلسفيّة لهذه الأمور وما تأثّر به في رحلته إلى أمريكا، حيث قضى بعيداً عن وطنه في المهجر اثني عشر عاماً (جبران، 2017). وإذا تعمّنا في فلسفة الشاعر المهجريّ إيليا أبو ماضي أيضاً في قصيدته "الطّلاسم" التي يبدأها: "جنّت لا أعلم من أين ولكنّي أتيت، ولقد أبصرتُ قُدّامي طريفاً فمشيتُ ... كيف جنّت كيف أبصرتُ طريقي لستُ أدري..."، يلاحظ أنّ الشاعر المهجريّ الرّاحل عن وطنه لبنان يبدأ قصيدته بمجموعة من الأسئلة التي يقضي عمره في البحث عن إجاباتها، وكأنّه يسير في طريق رُسم له، ولا يدري إلى أين المصير. هذا ما يفهم ممّا قصد به الشاعر إيليا أبو ماضي لما يصل إليه المهاجر والرّاحل العربي في النهاية في بلاد الغرب إلى مفهوم يتساءل عن مصيره المجهول فاقداً لحرّيته وعدم القدرة على التّحكّم بنفسه بقوله في قصيدته متسائلاً: "هل أنا حرٌّ طليقٌ أم أسيرٌ في قيود؟ هل أنا قائدٌ نفسي في حياتي أم مقود؟" (خير الدين، 2017؛ محمد، 1976).

5. خاتمة واستنتاجات

تنوّعت الرّحلات ومقاصدها ودوافعها وأنواعها منذ العهد الجاهلي ومروراً في العصور الإسلاميّة المختلفة حتى العصر الحديث، ولكن ما يوحد هذه الرّحلات هو آثارها الأدبيّة والتاريخيّة في الثقافة العربيّة والإسلاميّة، بمؤلفاتها الشعريّة، الوصف الخُرافي، الواقعيّة في السرد والتوثيق التاريخي للظواهر الجغرافيّة، الأحداث التاريخيّة، والظواهر الإجتماعيّة والعادات بكل جوانبها ومعالمها الحضاريّة. في هذا المقال، يمكن إستخلاص إسهامات كتب الرّحلات وأدبيّاتها بأنّ الرّحلة كانت ولا تزال تشكّل جزءاً من نشاط الإنسان الدائم نحو كسب العيش والسعي لكشف حضارة الغير. لقد تضمّنت كتابات الرّحالة وصف أعمال التراث بالوصف الحقيقي والغني بالتفاصيل لمختلف خصائص البلدان وطبائع أهلها. كما أبرزت حقيقة تعدّد الأقسام، وتنوّع الثقافات، والتعرّف على التّطوّرات والتغيّرات في البلدان المختلفة عبر العصور. لذا، تُعتبر كتابات الرّحالة مصدراً هاماً لوصف الثقافات الإنسانية عبر التاريخ، قديماً وحديثاً، وأصبحت من أهمّ المصادر والمراجع الثقافيّة للإثراء والتنوير التي توثق تاريخ الأقطار والبلدان التي زارها الرّحالة، وأبرزوا صورتها الجغرافيّة وغيرها من المظاهر الطبيعيّة والحدود السياسيّة والإداريّة، والحياة الدينيّة والإجتماعيّة. وقد تميّزت كلّ فئة من هؤلاء الرّحالة بنوع من الأدبيات التي تعكس الأحداث في كلّ زمان ومكان عاشوا بها ووثقوا فيها آثارهم:

1. التّرحال والتّنقّل في العصر ما قبل الإسلام وما ترك من أثر في الشعر الجاهلي والمعلّقات والقصص والروايات تعكس تلك الحياة البدائيّة والصّحراويّة وما تميّزت به من عادات وتقاليد.
 2. القصص والوصف الخيالي لإحياء ليالي السّمّر ومجالسه انتقلت من العصر الجاهلي واستمرت في العصر الإسلامي بتأثير روايات من شعوب غير عربيّة كالهنديّة والفارسيّة مثل "ألف ليلة وليلة"، وانتشرت في قصور الطبقة الحاكمة من خلفاء وسلاطين وغيرهم من الحكّام لإحياء مجالس الشعر والسّمّر فيها.
 3. الرّحلات الواقعيّة وأثرها الدّيني، الإجماعي، الجغرافي والتاريخي، وتوثيقها بمؤلّفات الرّحالة، بداية من رحلات الحجّ وحتى وصف الأمور الأخرى التي اهتمّ بها الرّحالة، والتي ساهمت في إثراء المكتبة العربيّة وأدبياتها في كتب الرّحلات وما رافقها من أحداث وظواهر طبيعيّة ومسالك سياسيّة ومزايا إجتماعيّة. وذلك بوصف ما رأى الرّحالة من عجائب وغرائب، وما سمعوه ولاحظوه أو ما نقلوه من أخبار الآخرين من ذوي المعرفة والتجربة.
 4. الشّعر والأدب المهجري في عصر الحداثة وما ترك من أثر فلسفيّ ومتداخل بوصف الغربة والتّرحال إلى بلاد الغرب وأمريكا بسبب الظروف القاهرة، إقتصاديّاً وسياسيّاً، والتي تعكس تلك الظروف التي عاشوا بها في بلاد المهجر والتّرحال، مقارنة مع الأمور والمظاهر المختلفة في أوطانهم الأصليّة، على أمل نقل ما يُستفاد به من حداثة ينقلونها إلى شعوبهم وبلدانهم من أجل التغيير والتّقدّم بما يروونه مناسباً للحضارة العربيّة والإسلاميّة.
- ولكن يبقى السؤال الذي يحتاج إلى دراسة وأبحاث أوسع ومعتمّقة حول أثر الرّحلات في الحضارة العربيّة والإسلاميّة، إن كان لها أبعاد وأثار إيجابيّة أو سلبية، وخاصّة في العصر الحديث.

6. قائمة المصادر والمراجع

1.6 المصادر والمراجع العربيّة:

- ابن بطوطة، محمّد بن عبّد الله. (1987). رحلة ابن بطوطة: تحفة النّظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار. بيروت: دار إحياء العلوم.
- ابن جُبَيْر، محمّد بن أحمد الأندلسي. (2012). رحلة ابن جُبَيْر/ تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار/ اعتبار الناسك في ذكر الآثار الكريمة والمناسك. بيروت: دار صادر.
- ابن الجيعان، بدر الدين أبو البقاء محمّد. (1984). القولُ المُستظرف في سَفَرِ الملك الأشرف قايتباي. بيروت: جرّوس برس.
- ابن حَوْقَل، أبو القاسم محمّد. (1992). صورة الأرض. بيروت: دار مكتبة الحياة للطباعة والنشر.
- ابن خرداذبة، عبيد الله بن أحمد. (2014). المسالك والممالك. بيروت: دار الكتب العلميّة.
- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمّد. (2004). رحلة ابن خلدون. بيروت: دار الكتب العلميّة.
- ابن طُفَيْل، محمّد بن عبد الملك الأندلسي. (2011). حَيّ بن يقظان. المملكة المتحدّة: مؤسّسة هنداوي.
- ابن عبد الظاهر، مُحيي الدين عبدالله. (1976). الرّوض الزّاهر في سيرة الملك الظاهر. الرّياض: النّجدي.
- ابن عبد الظاهر، مُحيي الدين عبدالله. (1996). الرّوضة البهيّة الزّاهرة في خُطّ المُعزّيّة القاهرة. القاهرة: الدار العربيّة للكتاب.
- ابن عبد الظاهر، مُحيي الدين عبدالله. (1961). تشرّيف الأيّام والعصور في سيرة الملك المنصور. القاهرة: وزارة الثقافة.

- إبن عبد الظاهر، مُحبي الدين عبدالله. (1902). الألفاظ الخفية من السيرة الشريفة السلطانية الأشرفية. Distribuent, Gleerupska universitetsbokhandeln (Hjalmar Möller).
- إبن العديم، كمال الدين عمر. (1996). زبدة الحلب في تاريخ حلب. بيروت: دار الكتب العلمية.
- إبن الفارض، عمر بن علي بن مرشد. (1963). ديوان إبن الفارض سلطان العاشقين. القاهرة: وزارة الثقافة والإرشاد القومي.
- إبن فضل الله الغمري، شهاب الدين أحمد. (2010). مسالك الأبصار في ممالك الأمصار. بيروت: دار الكتب العلمية.
- إبن فضلان، أحمد. (1959). رحلة إبن فضلان. دمشق: المجمع العلمي العربي.
- إبن المقفع، عبد الله. (1951). ألف ليلة وليلة. القاهرة.
- ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم. (1414هـ/1993م). لسان العرب. بيروت: دار صادر.
- أبو الفداء، إسماعيل بن علي. (2007). تقويم البلدان. القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية.
- بحري، نصيرة. (2019/9). "أدب الرحلة، إشكالية المصطلح وزبنيقية المفهوم". مجلة حوليات التراث، جامعة مستغانم، العدد التاسع عشر، ص 43-59.
- البدري، عبد الله أبو البقاء. (1980). نزهة الأنام في محاسن الشام. بيروت: دار الرائد العربي.
- البرقوقى، عبد الرحمن. (2014). شرح ديوان المتنبي. المملكة المتحدة: مؤسسة هنداوي.
- البغدادى، موفق الدين عبد اللطيف. (1983). الإفادة والإعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعانيّة بأرض مصر. دمشق: دار قتيبة للنشر والتوزيع.
- البكري، أبو عبيد عبد الله الأندلسي. (2003). المسالك والممالك. بيروت: دار الكتب العلمية.
- التعالبي، أبو منصور عبد الملك النيسابوري. (2006). يتيمّة الدهر في محاسن أهل العصر. (ج 1-4). القاهرة: مكتبة مصر.
- جبران، جبران خليل. (2017). النبي. المملكة المتحدة: مؤسسة هنداوي.
- الجيلوي، ندى عبد الرازق. (شباط 2024). "إبن جبير الرحالة والشاعر العربي الأندلسي". مجلة دراسات في التاريخ والآثار، العدد (90): ص 283-304.
- حسن، ندى. (2010). "أثر اللغة العربية وأدبها في شعر ناصر خسرو". مجلة جامعة دمشق، المجلد 26 العدد الثالث والرابع: ص 113-174.
- حمدان، جمال. (1971). العالم الإسلامي المعاصر. القاهرة - مصر: عالم الكتب.
- الحموي، شهاب الدين ياقوت بن عبد الله. (1977). معجم البلدان. بيروت: دار صادر.
- خير الدين، أحمد. (2017). مشاهير أدباء المهجر. بيروت: دار المقتبس.
- ربوح، عبدالقادر. (2018/6). "الرحلة ودورها في التواصل الثقافي بين الجزائر والمشرق العربي خلال القرن 11هـ/17م: رحلة يحيى الشاوي الملياني (ت. 1096هـ/1685م) أنموذجا". مجلة البحوث والدراسات، (جامعة الوادي/الجزائر)، المجلد 15 العدد 01: ص 297-324.

- الشافعي، محمد بن إدريس. (2014). ديوان الإمام الشافعي. بيروت: دار الأرقم.
- الشريف الإدريسي، محمد بن محمد. (2002). نزهة المشتاق في اختراق الآفاق. القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية.
- الطهطاوي، رفاعه رافع. (2012). تخلص الإبريز في تخلص باريز. القاهرة: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة.
- عزام، عبد الوهاب. (2014). ذكرى أبي الطيب بعد ألف عام. المملكة المتحدة: مؤسسة هنداوي.
- العش، يوسف. (1991). دور الكتب العربية العامة وشبه العامة لبلاد العراق والشام ومصر في العصر الوسيط. بيروت: دار الفكر المعاصر.
- عطا الله، خضر أحمد. (1989). بيت الحجة في عصر العباسيين. القاهرة: دار الفكر العربي.
- العتيان، وفاء سليمان. (2011). "الإرتحال في الشعر الجاهلي". (بحث مقدّم لنيل درجة الماجستير في الآداب). جدة - المملكة العربية السعودية: جامعة الملك عبد العزيز، كلية الآداب والعلوم الإنسانية.
- الغلمي، مجير الدين الحنبلي. (1999). الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل. عمان: مكتبة دنديس.
- الفاسي، محمد بن الطاهر. (1967). الرحلة الإبريزية إلى الديار الإنجليزية. فاس: مطبعة جامعة محمد الخامس.
- الفيروز آبادي، مجد الدين محمد الشيرازي. (2008). القاموس المحيط. القاهرة: دار الحديث.
- القرويني، زكريا بن محمد. (2013). آثار البلاد وأخبار العباد. بيروت: دار الكتب العلمية.
- اللواتي، إحسان بن صادق وتركي، فاطمة كريمي. (آذار 2020). "فنّ النقائض نظرة في المفهوم والممارسة". مجلة سر من رأى، مجلد 16 عدد 62، ص578-598.
- المتنبي، أبو الطيب أحمد بن حسين. (تحقيق: سبيتي، مصطفى). (2020). شرح ديوان أبي الطيب المتنبي. بيروت: دار الكتب العلمية.
- محاميد، حاتم محمد. (2009). دراسات في تاريخ القدس الثقافي في العصر الوسيط. عمان: دار ورد الأردنية.
- محمد، نظمي عبد البديع. (1976). أدب المهجر بين أصالة الشرق وفكر الغرب. القاهرة: دار الفكر العربي.
- المسعودي، عليّ ابن الحسين. (2005). مروج الذهب ومعادن الجوهر. بيروت: المكتبة العصرية.
- المقدسي، شمس الدين محمد البشاري. (2003). أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات.
- المقرزي، تقي الدين أحمد. (1998). المواعظ والإعتبار بذكر الخطط والآثار. (ج1-3). القاهرة، مكتبة مدبولي.
- الموافي، ناصر عبد الرازق. (1995). الرحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري. القاهرة: دار النشر للجامعات المصرية.
- الموصلي، إلياس حنا. (2001). الذهب والعاصفة: رحلة إلياس الموصلي إلى أمريكا. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات.
- ناصر خسرو، علوي القبادياني. (1993). سفرنامه (كتاب الرحلة/السفر). القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- الهروي، أبو الحسن علي. (2002). الإشارات إلى معرفة الزيارات. القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية.
- اليقوبي، أحمد بن إسحاق. (2002). كتاب البلدان. بيروت: دار الكتب العلمية.

2.6. المصادر والمراجع الأجنبية:

- Abu Alhaija, Younis Fareed & Mahamid, Hatim Muhammad. (2021). "The Impact of Doctrinal and Intellectual Conflicts on Medieval Islamic Sciences". *Journal of Positive Psychology & Wellbeing*, Vol. 5, No. 4: pp. 542-560.
- Borm, Jan. (2004). "Defining Travel: On the travel book, travel writing and terminology." In *Perspectives on travel writing*, (Glenn Hooper and Tim Youngs eds.), Aldershot: Ashgate, pp. 13-26.
- Bush-Joseph, Kathleen. (May 12, 2013). "*Ibn Jubayr: The Rihla*". (Senior Honors Seminar in History, 2012-2013, Georgetown University), <http://ssrn.com/abstract=2659480> (accessed 30 July 2024).
- Campbell, Mary B. 1988. *The Witness and the Other World: Exotic European Travel Writing, 400-1600*. Ithaca: Cornell University Press.
- Chareyron, Nicole. (2005). *Pilgrims to Jerusalem in the Middle Ages*. (Translated by W. Donald Wilson). New York: Columbia University Press.
- Ciggaar, Krijnie N. (1966). *Western Travellers to Constantinople; The West and Byzantium, 962-1204: Cultural and Political Relations*. Brill.
- Cooke, Simon. (2013). *Travellers' Tales of Wonder: Chatwin, Naipaul, Sebald: Chatwin, Naipaul, Sebald*. Edinburgh University Press.
- Dorpmüller, Sabine. (2016). "Preaching Performances Revisited: The Narrative Restaging of Sermons in the Travelogue of Ibn Jubayr (d. 1217)". In: Ines Weinrich (ed.). *Performing Religion: Actors, contexts, and texts Case studies on Islam*. Beirut: Orient-Institut, pp. 163-183.
- Dunn, Ross E. (2012). *The Adventures of ibn Battuta: A Muslim Traveler of the Fourteenth Century*. University of California Press.
- El-Shinqiti, M. El.-M. (2022). من طنجة إلى جاكارتا: وحدة المعنى والمبنى في العالم الإسلامي بين ابن بطوطة وجمال حمدان. *Global Journal Al-Thaqafah*, 12(1), 148–168. <https://doi.org/10.7187/gjat072022-9>
- Frenkel, Yehoshua. (2020). "The Contribution of European Travel Literature to the Study of the Environmental History of the Levant (13th-15th centuries)". In: *Living with Nature and Things Contributions to a New Social History of the Middle Islamic Periods*. Göttingen: Vandenhoeck & Ruprecht, pp. 705-724.

- Grammatico, Daniel & Werner, Louis. (Jan./Feb. 2015). "Travelers of Al-Andalus, Part 1: The Travel Writer Ibn Jubayr". <https://www.aramcoworld.com/Articles/October-2016/Travelers-of-Al-Andalus-The-Travel-Writer-Ibn-Jub>. Aramcoworld.com, pp. 40-43.
- Howard, Donald R. (1980). *Writers and Pilgrims: Medieval Pilgrimage, Narratives and their Posterity*. Berkeley: University of California Press.
- Hunsberger, Alice C. (2000). *Nasir Khusraw, The Ruby of Badakhshan: A Portrait of the Persian Poet, Traveller and Philosopher*. London: I.B. Tauris.
- Hunza'i, Faquir M. & Kassam, Kutub (trans. & ed.). (1997). *The Shimmering Light: An Anthology of Isma'ili Poems*. London & New York: I. B. Tauris.
- Ismailimail. (January 29, 2014). "The Interactive Safar-nama of Nasir Khusraw at IIS". <https://ismailimail.blog/2014/01/29/the-interactive-safar-nama-of-nasir-khusraw-at-iis/> (accessed 24.7.2024).
- Mahamid, Hatim. (2005). "Cairo in Light of Nasir Khusraw's Safarnama". in: *Nasir Khusraw; Yesterday, Today, Tomorrow* (eds. Sarfaroz Niyozov and Ramazon Nazariyev). Tajikistan: Khujand, Noshir Publishing House, pp. 355-366.
- Mahamid, Hatim. (2017). "Persecutions against Isma'ili Missionaries in Central Asia: The Case of Nāser Khosrow". *Journal of Persianate Studies* 10: pp. 57-73.
- Mahamid, Hatim & Nissim, Chaim. (2023). "Rakb al-Ḥajj al-Shāmī: Nomads and Pilgrims Relations during the Mamluk and Ottoman Periods". *CHRONICA: Nomads and their Neighbours in the Middle Ages*. Vol. 21. (Eds. Konstantin Golev – Delyan Rusev). Hungary: University of Szeged, pp. 301-315.
- Mahamid, Hatim, & Abu Alhaija, Younis. (2024 a). "Popular Religious Preaching as Informal Education and its Impact on Medieval Islamic Culture". *American Journal of Islam and Society*, 41(3-4), pp. 56–83.
- Mahamid, Hatim & Abu Alhaija, Younis. (2024 b.). *Medieval Islamic Education; Methods, Approaches and Ethics*. London: Lap Lambert Academic Publishing.
- Rubiés, Joan-Pau. (2000). "Travel Writing as a Genre: Facts, Fictions and the Invention of a Scientific Discourse in Early Modern Europe." *Journeys: The International Journal of Travel and Travel Writing* 1, no. 1-2, pp. 5–35.

- Schadl, Marcus. (2009). "The Shrine of Nasir Khusraw: Imprisoned Deep in the Valley of Yomgān". *Muqarnas* 26 (1): pp. 63-93.
- Schimmel, Annemarie (Translator). (2001). *Make a Shield from Wisdom: Selected Verses from Nasir-i Khusraw's Divan*. London: I.B. Tauris in association with the Institute of Ismaili Studies.
- Tolan, John V. (2002). *Saracens: Islam in the Medieval European Imagination*. New York: Columbia University Press.
- Wolfe, Michael (ed.). (2015). *One Thousand Roads to Mecca: Ten Centuries of Travelers Writing About the Muslim Pilgrimage*. New York: Grove Press.

جميع الحقوق محفوظة IJRSP © (2026) (الدكتور/ حاتم محمد محاميد). تُنشر هذه الدراسة بموجب ترخيص المشاع الإبداعي (CC BY-NC 4.0).

This article is distributed under the terms of the Creative Commons Attribution-Non-Commercial 4.0 International License (CC BY-NC 4.0).

Doi: <http://doi.org/10.52133/ijrsp.v7.77.7>